الفصل الثالث

المتهم البريء

تمهيد

على الرغم من أن الأنبياء جميعا تعرضوا لاعتداءات تصل إلى حد الجريمة، ابتداء من القذف والسب مرورا بالضرب ومختلف أنواع الإيذاء، وانتهاء بالقتل أو الشروع فيه، إلا أن القرآن الكريم لم يخص نبيا منهم بذكر جريمتين وقعتا عليه ـ وكان مجنياً عليه فيهما ـ غير يوسف ـ عليه السلام ـ فقد رأينا فى الفصل السابق كيف تآمر إخوته عليه؛ لينزعوه من أبيه، وهو بعد غلام صغير، لا حول له ولا قوة، حتى نجحوا فى ذلك، ثم أخذوه إلى حيث يقع الجب الذى كانوا قد اتفقوا على إلقائه فيه. ثم كيف التقطته قافلة الإسماعيليين وحملته إلى مصر وهو لا يدرى ماذا سيكون مصيره. ثم حدث أن عرض للبيع فى سوق العبيد حيث اشتراه عزيز مصر وصحبه إلى قصره. وكانت هذه هى الجريمة الأولى.

أما الجريمة الثانية فقد حدثت بعد أن قضى فى قصر العزيز مدة من الزمن وصلت به إلى مرحلة البلوغ التى انتقل بها إلى طور الفتوة، حيث برز حسنه وتجسدت وضاءته، واكتسب جسمه قوة واتساقا، فلفت نظر امرأة العزيز التى حاولت أن تثير حواسه وتلهب مشاعره لكى يضاجعها، ولكنه أبى، فما كان منها إلا أن اتهمته بأنه حاول أن يغتصبها، ودعت إلى معاقبته بالسجن أو بالتعذيب، وبالفعل أودع السجن ليقضى فيه سنوات دون ذنب أو جريرة اللهم إلا لإرضاء المرأة المفتونة التى أغضبها أن لا يستجيب لها بأن يزنى بها، وحتى لا يفتضح كذبها أمام الناس، حيث ادعت أنه هو الذى حاول أن يغتصبها فأبت، ولحفظ ماء وجه زوجها الموظف الكبير، فلا يقال إن زوجته هى الجانية وليس الشاب الجميل يوسف الذى فتنها حبا حتى فقدت سيطرتها على نفسها، فأقدمت على دعوته

ليضاجعها ولكنه أبى. ومن ثم يثور الجدل حول ما دفعها إلى سلوك هذا الطريق، ودور زوجها فيما حدث!

جريمة امرأة العزيز:

ونعود إلى قصة هذه الجريمة فى القرآن الكريم فنجد أنها ـ على الرغم من اختصارها الشديد شأنها فى ذلك شأن كل القصص القرآنى ـ فإنها مع ذلك جاءت مكتملة من حيث اشتمالها على كل عناصر الجريمة، مثل ظروف الجانى (أو الجانية)، والباعث لديها على ارتكاب الجريمة، وكيفية التدبير لارتكابها، والحوار الذى دار بين الجانى والضحية، وأسلوب الاستدلال على الفاعل الحقيقى، ومسرح الجريمة، وغير ذلك من الملابسات التى تسبق الجريمة أو تعاصرها، ومنها شخصية العزيز وما كان عليه من ضعف شديد أمام زوجته الماكرة. وقبل كل شىء فإن القرآن الكريم بإيراده هذه القصة أكد حقيقة هامة طالما غفل عنها الناس، وهى أن النساء لسن دائما المجنى عليهن فى الجرائم الجنسية وبالذات الاغتصاب، وإنما قد يحرضن على وقوعه بما يمتلكن من أساليب الغواية ووسائل الإثارة؛ لذلك يجب أن لا تؤخذ اتهاماتهن للرجال بالاعتداء عليهن باعتبارها حقائق غير قابلة للنقاش أو البحث والتمحيص، وإنما ينبغى التزام الحذر التام إزاء مثل هذه الاتهامات خاصة مع ما هو معروف عن النساء من قدرة على الكيد المتقن والتلفيق المحكم. كما بين لنا كيف أن بعض النساء لا يختلفن عن الرجال فيما يصدر عنهم من تصرفات تتسم بالعنف والتهور، أو بالطيش والرعونة إذا ما انتابهم الإحساس بالرغبة الجنسية، وهو ما فعلته امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام.

كذلك قدم لنا صورة فريدة عن المجتمع الذى عاشت فيه المرأة وزوجها العزيز، وكيف أنه كان مجتمعا تتفشى فيه الرذيلة، أو على الأقل فى الطبقة العليا منه، أو كما تسمى أحيانا طبقة الصفوة التى تتكون من الحكام وأعوانهم ومساعديهم وأقاربهم، كما يتفشى فيه الظلم والقهر والاستبداد، صحيح أنه فى

الوقت الذى وقعت فيه الجريمة كانت مصر تحت حكم الهكسوس الذين غزوا مصر سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد، وأقاموا فيها طوال قرن ونصف (وفى رأى آخر قرنين ونصف)، مما يحتمل معه أن تكون هذه الصفوة الفاسدة منتمية إليهم. ولكن ذلك لا يمنع من وجود مصريين تعاونوا مع الهكسوس وخالطوهم على المستويين الفردى والأسرى شأن كثير من الانتهازيين والوصوليين والمنافقين فى أيامنا هذه، الذين لم يتورعوا عن التعامل مع الإسرائيليين الذين يحتلون جزءا عزيزا من أرض المسلمين، ومن قبلهم الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر، ومن قبل الإنجليز الفرنسيون أثناء حملة بونابرت وما بعدها. فذوو النفوس الضعيفة موجودون فى كل زمان ومكان، فلا يقولن أحد من المرضى بحب الفراعنة إنهم كانوا استثناء من هذا الوضع!

وقصة هذه الجريمة النكراء كما وردت فى القرآن الكريم فى سورة يوسف[1]: أنه بعد أن التقطت القافلة يوسف من الجب وحملته إلى مصر لتبيعه فيها على أنه عبد، اشتراه العزيز، وهو لقب، قيل إنه كان يطلق على كبير وزراء الملك. وجاء فى سفر التكوين[2] أنه كان يطلق على رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون، أو مانسميه الآن وزير الداخلية. وهذا الخلاف بشأن وظيفة العزيز يُبِينُ لنا عن الحكمة التى من أجلها لم يهتم القرآن بذكر الأسماء أو المناصب أو الاختصاصات الوظيفية وغيرها؛ لأنها مما لايفيد كثيراً، أو لا يفيد بالمرة فى مثل هذه الأحوال؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو سجلا للحوادث، وإنما ورد به القصص لسببين:

الأول ـ إثبات معجزة القرآن وأنه ليس من وضع الرسول محمد ﷺ الذى لم يكن لديه علم بالأحداث التى اشتمل عليها القصص، ولا بالوقائع التى تناولها، بل إن ما جاء من هذا القصص فى كتب الآخرين كاليهود مثلا عابه الخلط الواضح والتناقض الفاضح، مما يؤكد أن اليهود غيروا وبدلوا فى التوراة خدمة

(١) الآيات من ٢١ إلى ٥٣
(٢) الإصحاح ٣٧

لمصالحهم الدنيوية، واستجابة لما أملته عليهم أهواؤهم، وهو ما ينفى عنه تهمة النقل عنهم، التى وجهها إليه كثير من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين أعماهم التعصب عن ملاحظة الاختلاف الواضح بين ما ورد فى التوراة وما جاء فى القرآن.

الثانى ـ أن يستخلص الناس من هذا القصص العظات والعبر، ويتعلموا منها كيف يتصرفون إزاء المواقف المماثلة بما يحول دون تعرضهم لما تعرض له أبطال هذا القصص، أو وقوعهم فيما وقعوا فيه من أخطاء. والمعلوم أن القرآن الكريم استخدم أكثر من أسلوب فى تهذيب الناس وتربيتهم وتعليمهم، منها النصح والتوجيه والإرشاد، وهى أساليب مباشرة، أما الأساليب غير المباشرة فمنها القصص الذى وإن بدا أنه يهدف إلى الترويح عن النفس إلا أنه فى الحقيقة يؤدى وظيفة أخرى هامة، لا يدرك أهميتها إلا من يحسنون إعمال النظر، ومن هم على درجة عالية من الذكاء والفطنة؛ فهم الذين يملكون القدرة على استخلاص العظة بأنفسهم، والتعرف على موضع النصيحة بعقولهم.

وقائع القضية:

لما اشترى العزيز يوسف أخذه إلى داره ليقدمه إلى زوجته قائلا لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1]

وقول العزيز: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾[1]:

يقصد به فى أعمال البيت وما يرتبط به من شئون، وأستبعد أن يكون قد قصد ما ذهب إليه الشيخ رشيد رضا[2] من إضافة شئون الدولة العامة؛ لأن هذا لا يدخل فى نطاق قدرة العزيز أو صلاحياته، وإنما أمره موكول إلى الملك الذى يستقل بالحق فى تعيين الموظفين كبارا وصغارا، بل إن العزيز نفسه لم يكن يملك أن يبقى فى منصبه، والدليل على ذلك أن يوسف حل محله فيما بعد، وأصبح

(١) يوسف: ٢١

(٢) تفسير المنار، ج ١٢ ص ٢٢٥

عزيزا لمصر، وحتى لو أن العزيز كان قد مات قبل أن يسند الملك هذا المنصب إلى يوسف، فإن ذلك لم يحدث بسبب وصية تركها العزيز للملك بتعيين يوسف فى هذا المنصب، ولكن لأن الملك تعرف بنفسه على قدرات يوسف ومواهبه، وليس لأى سبب آخر. ثم أضاف العزيز: ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾[1] ولقد تصورت العزيز وهو يقول ذلك، وكان واقفا أو جالسا يحدث زوجته، ثم التفت إلى يوسف ونظر إليه مليا، وقد علت وجهه ابتسامة رقيقة تفيض بالمودة، بينما امتزج العطف فى نظرته بالشفقة على الغلام الصغير الجميل الذى لا حول له ولا قوة، والذى كانت تبدو عليه مخايل الذكاء والنجابة فضلا عن الأدب الذى كان يمتزج بمسحة من الحزن النبيل الذى لم يفارقه منذ أن تركه إخوته فى الجب؛ لكى يحرموه من حب أبيه وحدبه عليه ورفقه به، وليستأثروا هم بكل هذا، كما غلب على ظنهم!.

ويذهب أغلب المفسرين إلى القول بأن العزيز لم يكن له ولد ولم يأت النساء[2]، أى عقيما لا يولد له[3] كما قيل إنه كان حصورا[4].

وليس من السهل أن يصرح رجل فى مكانة العزيز بما يتمناه من اتخاذ عبد جديد ـ لم يمض على شرائه له إلا سويعات ـ ولدا له ولزوجته، وهو الذى لم يعرف عنه شيئا، ولم يختبره فى مواقف مختلفة ويعجم عوده. ولقد برر جمهور المفسرين هذا التصرف من جانب العزيز بأنه يرجع إلى أنه كان على درجة عالية من الفراسة مكنته من أن يستنتج ما عليه عبده الجديد من كرم محتد وطيب أصل وحسن أدب وجميل طباع، فضلا عن جمال الخلقة، ورفيع الخلق. غير أنى أختلف معهم فيما ذهبوا إليه؛ لأن تصرف العزيز مع زوجته الفاسدة يدل على افتقاره الواضح إلى هذه الصفة، وإلا لكان بمقدوره أن يدرك ما هى عليه من فساد وشر دون حاجة إلى شهادة أحد أقاربها يوم أن دخل البيت فرآها تطارد فتاها وهى فى حالة شبق شديد تعترى ـ عادة ـ من هن من هذا النوع من النساء.

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢١

(٢) الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) ج ١٢، ص ١٠٤

(٣) الزمخشرى (الكشاف) المجلد الثانى، ص ٣١٠

(٤) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٩٠

أو لبادر إلى إبعاد يوسف عن البيت بعد أن أدان الشاهد زوجته بالاعتداء على يوسف، أو لأدرك أن ما اقترحته من سجن يوسف وتعذيبه إنما هو بدافع من الرغبة فى الانتقام منه؛ لأنه رفض أن يضاجعها مما عدته إهانة لأنوثتها واستخفافا بمكانتها الاجتماعية، وأنها زوجة العزيز!!

فلماذا ـ إذن ـ تمنى العزيز أن يتخذا من يوسف ولدا؟! الذى أرجحه أن السبب يرجع إلى ذلك الإحساس الغامض الذى انتاب العزيز وجعله يتعاطف مع الفتى الجميل الرقيق الذى لا حول له ولا قوة؛ فقد شعر أنه مثله لا يختلف عنه فى شىء رغم منصبه الخطير، فكلاهما عبد مملوك، فهو ـ أى العزيز ـ ملكته زوجته اللعوب، فأصبح عبدا لها بسبب ضعفه وقلة حيلته وهوانه على نفسه بعد أن كشفت عجزه عن القيام بالواجب الذى تفرضه عليه الزوجية مع حبه الشديد لها. وكانت صغيرة جميلة ماكرة لعوبًا أحسنت استغلال الظروف، فعرفت كيف تسيطر عليه وتسخره لتحقيق كل ما تصبو إليه، فبات يعانى من إحساس قوى بالدونية، وشعور طاغ بالإحباط، وانتهى به الحال إلى أن أصبح عبدا ذليلا لها. أما يوسف فإنه صار عبدا بمقتضى نظام جائر يسمح للإنسان بأن يشترى ويتملك أخاه الإنسان فيفعل به ما يشاء دون أن يكون له أن يعترض أو يمتنع، أو حتى أن يسأل لماذا؟!.

وربما يكون العزيز قد أراد ـ بالإعراب عن تمنيه أن يتخذا يوسف ولدا ـ أن ينبهها ـ بأسلوب لبق ـ إلى أن يوسف فى عمر ولدهما، لو أنه كان قدر لهما أن ينجبا، وبالتالى يجب عليها أن تتعامل معه بنفس الأسلوب الذى تتعامل به الأم مع ابنها من حيث العطف والسمو والطهارة والشرف، وكل ما يليق بمقام الأمومة.

ولا شك أن يوسف لما سمع هذا القول من العزيز نظر إليه فى امتنان ورضا وفكره مشغول بالله يشكر له أن قيض له هذا الرجل الكريم لكى يعوضه بعضا مما فقده من حنان الأب وعطفه، ويبعث فيه إحساسا بالطمأنينة والأمان، ويعيد إليه ثقته فى الناس بعد أن غدر به إخوته وهم أقرب الناس إليه وفعلوا به ما فعلوا،

فبيع بيع السلعة القليلة القيمة بعد أن ظل وقتا معروضا فى سوق النخاسة تتفحصه أنظار المشترين، مما أوشك أن يفقده إحساسه بآدميته، وأصابه خوف شديد من أن يشتريه شخص قاس أو منحرف أو شره إلى المال يعيد بيعه ليحصل على ربح أكبر. وهكذا إلى أن اشتراه العزيز وصحبه إلى داره وهو يترفق به ويشفق عليه مما هو فيه، ثم ها هو يقول لزوجه هذا الكلام الطيب الرقيق. أما هى فقد أخذت تنظر إليه كما لو كانت تتفحصه وقد لفت نظرها بوسامته وحسنه ووجهه الصبوح، بتعبيراته الرقيقة المفعمة بالطيبة والسماحة، ونظرته التى تفيض بالبراءة والهدوء وصفاء النفس، ثم تهبط بنظرتها فى بطء تتأمل قوامه الممشوق، وجسمه السليم الذى يخلو من العيوب، ويبشر برجولة كاملة، بينما هو يتلافى التقاء عينيه بعينيها، وقد اعتراه خجل أصابه باضطراب تلاحظه هى فتبتسم فى دهشة مرحة ماكرة، وترد على ما قاله زوجها بإيماءة غامضة، بينما هى تسحب نظرتها عن الغلام الجميل فى بطء.

وليس من شك فى أن إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كانت قد سبقت إرادة الجميع: يوسف والعزيز وامرأته، إلى أن إقامة يوسف ستكون فى قصر العزيز المدة التى حددها الله؛ لأنه سيكون المسرح الذى ستجرى عليه الأحداث الهامة فى حياة يوسف ـ عليه السلام ـ والتى سيكون ختامها تحقيق الرؤيا التى سبق له أن رآها. لكن لماذا قصر العزيز بالذات وقد كان هناك قصور أخرى كثيرة يقيم بها رجال من أهل الحكم ومن الصفوة يمكن أن يكون فيها جميعا، أو فى بعضها نساء مثل امرأة العزيز يملن إلى يوسف ويحاولن التغرير به وغوايته لكى يضاجعهن فيأبى فيفعلن كما فعلت امرأة العزيز لما اتهمته أمام زوجها، فيسعى أزواجهن أو إخوتهن أو أقاربهن من ذوى النفوذ والسلطان أو ممن هم على صلة بهؤلاء، من أجل الزج به فى السجن، حيث يلتقى بالرجلين اللذين فسر لهما رؤياهما، ثم تتوالى بقية الأحداث؟!

ما نرجحه هو أن الله تعالى جعل إقامة يوسف فى قصر العزيز لسبب هام للغاية يرتبط بالنهاية التى سبق أن بشرت بها الرؤيا التى رآها، وهى أنه سيكون

رجلا ذا شأن، يسجد له أعضاء أسرته، وهو ما لا يكون إلا بالنسبة للحكام الذين مهما بلغت علاقتهم بأقربائهم من حميمية ومودة وحب، فإن للتقاليد ـ أو ما يسمى بالبروتوكول ـ حكمها الذى لا يستثنى منه أحد، طالما أن اللقاءات تمت فى العلن، مثل قاعة الحكم أو الملك، فيكون على هؤلاء الأقارب أن يسجدوا كما يسجد سائر الناس.

لذلك كان ضروريا أن يتم تدريب يوسف على ممارسة شئون الحكم أو الوزارة، حتى إذا جاء اليوم الذى يقع فيه اختيار الملك عليه لتولى شئون الحكم استطاع أن يقوم بعمله على الوجه الأكمل من كافة جوانبه، سواء من حيث آلية العمل ذاته، أو من حيث ما يكتنف القيام به من أسرار وألاعيب ومؤامرات.

وبطبيعة الحال، لا يوجد ما هو أفضل من قصر العزيز كمكان أو مدرسة يتعلم فيها يوسف كيف يكون حاكما، وحاكما ناجحا. فالعزيز باعتباره رأس السلطة الإدارية يستقبل فى قصره معاونيه على اختلافهم؛ لكى يطلعوه على سير الأمور فى مصالحهم، ويتلقوا تعليماته أو يستمعوا إلى نصائحه. كما أن هؤلاء الأعوان والمرءوسين كانوا يلبون ما يوجهه إليهم العزيز من دعوات لحضور ما يقيمه من احتفالات فى قصره، وفى الحالتين فإن يوسف ـ الفتى الأثير لدى العزيز ـ يسمع ويلاحظ ما يقال أو يحدث، ويتعلم، حتى ولو كان وجوده فى القاعات أو الغرف التى يجتمع فيها العزيز بأعوانه من الوزراء وكبار الموظفين لايستغرق إلا وقتا قصيرا هو الذى تستغرقه خدمته لسيده ولضيوفه. يضاف إلى ذلك ما كان يسمعه يدور من أحاديث بين الخدم تتناول العزيز وزواره من الكبار، وتتطرق إلى ما قد يكون هناك من أسرار الحكم وألاعيب الحكام، وهو مالم يكن سيتاح له معرفته فى أى مكان آخر.

ولعل لغة قوم يوسف ـ وأصلهم من العراق، وهم الذين هاجروا مع إبراهيم عليه السلام لما رفض دين أهله وأمره أبوه آزر أن يفارقه ـ كانت قريبة أو مماثلة للغة الهكسوس أو الرعاة الذين كانوا يحكمون مصر يومئذ، وقيل إنهم هم

العماليق الذين ترجع أصولهم إلى الجزيرة العربية[1] والذين كانت لغتهم العربية القديمة والتى تنتمى هى والعبرية إلى عائلة لغوية واحدة هى عائلة اللغات السامية التى تشمل اللغة الحبشية أيضا؛ ولذلك كان سهلا عليه أن يتعامل مع سيده العزيز وامرأته اللذين كانا من الهكسوس، شأن كل هيئة الحكم، من الملك إلى الموظفين إلى رؤساء الجند وقادتهم. بل وقد يكون لشراء العزيز ليوسف علاقة بأصله العبرى، فضلا عن مزاياه الأخرى؛ ذلك لأن الغزاة إذا احتلوا بلدا وحكموه فإنهم يفضلون الاستعانة بخدم وأعوان من غير الوطنيين، خوفا مما قد يقوم به هؤلاء من أعمال تجسس أو تخريب أو اغتيال أو تسهيل اغتيال مخدوميهم من الغزاة. وهناك من يرى أن كثيرا من العبرانيين كانوا قد تسللوا إلى مصر قبل غزو الهكسوس لها وأقاموا فيها، وذلك قبل أن يأتى إليها يوسف بوقت طويل، ويحتمل أن يكونوا قد قاموا بدور فى غزو هؤلاء لمصر. كذلك يقال إن كثيرين منهم دخلوا مصر مع الهكسوس، وعملوا فى خدمتهم؛ لذلك فإن من المحتمل أن الرجلين اللذين التقى بهما يوسف فى السجن كانا من الخدم العبرانيين الذين التحقوا بخدمة الملك. مما سهل عليه التخاطب معهما وفهم كلامهما عن رؤياهما، ثم تفسيره لها. وكذلك لما عاد إليه أحدهما ـ وهو الساقى ـ يروى له الرؤيا التى رآها الملك ويطلب منه أن يفسرها له.

سن يوسف يوم أن اشتراه العزيز:

وعلى الرغم من أنه سبق أن بحثنا فيما كانت عليه سن يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب، وعرضنا ما ذهب إليه المفسرون فى هذا الصدد، ثم رجحنا رأى من قالوا إنه كان فى الثانية عشرة للأسباب التى أوردناها، فإن الطبيعة الخاصة للاتهام الذى وجهته امرأة العزيز إلى يوسف بأنه حاول الاعتداء عليها يقتضى مزيدا من البحث فى مسألة السن؛ لارتباطها بإمكانية وقوع الاعتداء ـ وهو ذو طبيعة جنسية ـ من عدمه. وطالما أننا افترضنا أن سن يوسف يوم أن

(١) محمد عزة دروزة (تاريخ موجات الجنس العربى، فى وادى النيل: مصر والسودان، قبل العروبة الصريحة) ص ١١٩ وما يليها.

ألقى به فى الجب كانت الثانية عشرة، فإن البحث سيجرى بشأن سنه يوم أن اتهمته المرأة اللعوب بمحاولة اغتصابها، ولايساورنا أى شك فى أن سن يوسف يوم أن اشتراه العزيز كانت الثانية عشرة أيضا؛ حيث إن إحضار القافلة له إلى مصر من موقع الجب الذى عثر عليه فيه لم يستغرق شهرا وربما أقل؛ نظرا لقرب المسافة بين مصر والشام أو فلسطين الآن، حيث كان يوسف يقيم مع أبيه وحيث يقع الجب. وكما اختلف المفسرون بشأن سن يوسف يوم أن ألقى به فى الجب فقد اختلفوا أيضا بشأن سنه فى اليوم الذى اتهمته فيه امرأة العزيز بمحاولة الاعتداء عليها. ولا توجد مشكلة بالنسبة للفقهاء الذين قالوا إن سنه يوم أن ألقى به إخوته فى الجب كانت سبعة عشر عاما، وهو ما جاء فى التوراة، حيث إنه فى هذه السن يكون يوسف قد بلغ الحلم، وبالتالى يكون صالحا لأن يحقق الغاية التى رمت إليها امرأة العزيز بغوايتها له، وهى الجماع، ولكن المشكلة تقوم إذا كانت سنه يوم أن اشتراه زوجها دون السابعة عشرة، أى الثانية عشرة، وهو ما افترضه فريق من المفسرين وأخذنا به، فعندئذ يكون يوسف غير صالح لتحقيق الهدف من المراودة، وبالتالى فإنه تكون قد مضت مدة من الزمن بين مجيئه إلى بيت العزيز ومراودة زوجته له. ومن المفسرين الذين حاولوا أن يصلوا إلى تحديد لسن يوسف يوم أن راودته المرأة الطبرى[1] الذى اعتبر أن المرأة راودت يوسف بعد أن بلغ أشده، أى لما بلغ منتهى شدته وقوته فى شبابه، وذلك فيما بين ثمانى عشرة سنة إلى ستين سنة، وقيل أربعين سنة. كما ذكر آراء المفسرين فى هذا الصدد مثل مجاهد الذى قال: إن الأشد بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، والضحاك الذى اعتبرها عشرين سنة، وابن عباس قال بضعا وثلاثين سنة، وقال آخرون: أربعون سنة. ولم يرجح الطبرى رأيا مما أورده، فقد انتهى إلى القول: «وجائز أن يكون ذلك وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وجائز أن يكون أتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون أتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة له فى كتاب الله ولا أثر عن الرسول ﷺ ولا فى إجماع الأمة على أى ذلك كان. كذلك

(١) المرجع السابق، ص ١٠٤

الزمخشرى[1] لم يحدد متى يكون بلوغ الأشد، فقد قال: «قيل فى الأشد ثمانى عشرة سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل أقصاه اثنتان وستون. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأشد بلوغ الحلم[2]» أما المفسرون المحدثون، ومنهم محمد رشيد رضا[3] فقد قال فى تفسير الأشد: إن المقصود به بلوغ الرشد، وكمال قوته وشدتها باستكمال النمو البدنى، وأن هذه السن فى عرف الأطباء تتم فى خمس وعشرين سنة، ولكن لأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال: فعن عكرمة أنها خمس وعشرون سنة، وعن ابن عباس أنها ثلاث وثلاثون سنة، ولعله أخذه من قوله تعالى فى كمال البنية الإنسانية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾[4] فجعلها درجتين: بلوغ الأشد، وبلوغ الأربعين، وهى سن الاستواء.

ومعنى هذا أن يوسف ـ يوم أن راودته امرأة العزيز ـ كان فى سن تتراوح بين البلوغ والثانية والستين بحسب قول من قالوا إن الأشد يكون فى هذه السن المتأخرة أيضا، وهو ما لا يمكن تصوره بأى حال؛ لأنه لو صح لاستحال أن تراوده امرأة العزيز التى كانت تكبره، ولو راودته ما استطاع أن يمتنع عليها لعجزه، لا عن مقاومتها فحسب، أن كانت قادرة على مطاردته، بل ولثقته فى أنها لن تصل معه إلى شىء! فلابد إذًا من أن تكون المراودة قد حدثت فى سن مبكرة عن ذلك، كأن تكون عند بلوغ يوسف الحلم أو بعد ذلك بقليل. فإذا أخذنا بالقول الأول وهو بلوغ الحلم، يكون يوسف قد أمضى من عمره ثلاث سنين ـ كحد أدنى ـ فى بيت العزيز قبل أن تصبو إليه امرأته وتشغف به حبا فتراوده عن نفسه. أما إذا أخذنا بالقول الثانى وهوأن بلوغ الأشد يكون فى سن الخامسة والعشرين، أو فى الثالثة والثلاثين، أو الأربعين، فإن معنى ذلك أن

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١٠

(٢) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٦٢

(٣) تفسير المنار، المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٤) الأحقاف: ١٥

يوسف عاش مع امرأة العزيز ـ من يوم مجيئه إلى بيتها إلى يوم مراودتها له عن نفسه ـ مدة تتراوح بين ثلاث عشرة سنة وثمانية وعشرين سنة، دون أن تتحرك مشاعرها نحوه، أو أن هذه المشاعر احتاجت إلى هذا الوقت الطويل جدا لكى تنمو إلى أن بلغت ذروتها فى حادثة المراودة! مع الأخذ بعين الاعتبار ما سبق أن قلناه عن سن المرأة بعد كل هذه السنين. وعلى ذلك، فإن كلا القولين محل نظر للأسباب الآتية:

أولا ـ أنه إذا كان الجمال الفائق الذى اختص به الله تعالى يوسف هو ما حرك مشاعر زوجة العزيز نحوه وسلبها لبها وما زال بها حتى أفقدها صوابها حتى أقدمت على مطاردته فى إصرار لا يليق بمن كانت مثلها بعد أن فشلت فى مراودتها له عن نفسه، فإن هذا العامل وهو الجمال موجود لدى يوسف منذ أن رأته بعد أن أحضره زوجها إلى الدار. وإذ كان يوسف وقتئذ غلاما فى الثانية عشرة من عمره لا يصلح لتحقيق الهدف الذى رمت المرأة إلى بلوغه بمراودتها له، فإن الأمر لم يكن يتطلب غير الانتظار أربع سنوات فقط يكون يوسف بعدها ـ وربما قبلها بسنة ـ قد بلغ الحلم، وأصبح قادرا على تحقيق ما كانت المرأة تصبو إليه؛ ففى السابعة عشرة وأحيانا قبلها يمتلك الذكر القدرة على التعامل مع النساء جنسيا، كما أن صغر سنه على هذا النحو يجعله أسلس قيادا وأسرع استجابة مدفوعا بقوة ما لديه من شهوة إلى النساء، ورغبة فى خوض التجربة التى يثبت بها الشباب فى هذه السن لأنفسهم أنهم قد أصبحوا فى عداد الرجال.

ثانيا ـ أن القرآن استخدم كلمة «فتى» فى معرض حديثه عن مراودة امرأة العزيز ليوسف فقال: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

مما يدل على أن هذه الكلمة وكلمة «غلام» تعبران عن مرحلتين عمريتين مختلفتين تعقب إحداهما الأخرى، كما أعقبت المراودة الانتشال من الجب وشراء العزيز له، وإحضاره إلى بيته.

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف

وفى لسان العرب، الفتى: الشاب. وقال القتيبى: ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث، وإنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال، وإن كان للكلمة معنى آخر دعا بعض المفسرين إلى ترجيحه فى حالتنا هذه وهو (العبد) ففى حديث النبى ﷺ أنه قال: «**لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى، ولكن ليقل فتاى وفتاتى**» أى: غلامى وجاريتى، كأنه كره ذكر العبودية لغير الله. غير أنه فات أصحاب هذا الرأى الانتباه إلى أن الرسول ﷺ قال ذلك فى القرن الأول الهجرى، السابع الميلادى، أى بعد الوقت الذى عاش فيه يوسف بما يزيد على العشرين قرنا، وبالتالى فإن استخدام الناس لكلمة (عبد) ظل سائدا من قديم الزمن إلى اليوم الذى نهى فيه الرسول ﷺ عن ذلك، ولو كان الأمر خلاف ذلك ما كانت هناك حاجة إلى أن ينهى المسلمين عن إطلاق صفة العبد على مماليكهم. ومع ذلك فليس ما يمنع من أن يكون الرسول ﷺ قد استلهم فى حديثه هذا ما ورد بسورة يوسف فى وصف النسوة ليوسف، على اعتبار أن ذلك هو نوع الأدب المرغوب فى معاملة السادة لمماليكهم، وهناك معنى آخر لكلمة (فتى) وهو الخادم؛ فقد سمَّى الله تعالى صاحب موسى ـ عليه السلام ـ الذى صحبه فى البحر فتاه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾[1]

قال: لأنه كان يخدمه فى سفره، ودليله قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[2].

وليس ما يمنع من اجتماع المعنيين أو الثلاثة ـ وهى الشاب والعبد والخادم ـ ولكن على شريطة أن يكون الخادم أو العبد شابا أو فتى، وعندئذ يصح إطلاق أى هذه الصفات عليه. ويقول سيد قطب[3]: إن كلمة «فتى» وإن كانت تقال بمعنى عبد، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف، وهو ما ترجحه شواهد الحال. ولقد بينا كيف أن بعض المفسرين ذهبوا إلى القول أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى سن تتراوح بين الثالثة والثلاثين والأربعين، وهى

(١) الكهف: ٦٠

(٢) الكهف: ٦٢

(٣) فى ظلال القرآن، الجزء ١٢، صفحة، ١٩٨٠

التى يبلغ فيها الإنسان أشده، ويطلق العرب على الرجل فى هذه المرحلة من العمر وصف (الكهل) وذلك يوم أن راودته امرأة العزيز عن نفسه، وهو ما استبعدناه للأسباب التى سنوردها فيما بعد. فإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى امرأة العزيز التى لابد أنها كانت قد تجاوزت الأربعين، حيث إن يوسف كان فى الثانية عشرة من عمره يوم أن اشتراه زوجها، ويصف العرب المرأة فى هذه السن بالكهلة، ويقال: امرأة كهلة إذا انتهى شبابها. وذلك عند استكمالها ثلاثا وثلاثين سنة (لسان العرب) فهل كان شباب امرأة العزيز قد انتهى فعلا؟! وإذا كان قد انتهى فما هو الفضل الذى ينسب إلى يوسف لرفضه الاستجابة لها وهذا هو المتوقع من أى رجل غيره؟!

أما المقريزى[1] وهو من الفريق الذى يتفق مع ما ورد فى التوراة بأن سن يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب كانت سبع عشرة سنة، فإنه يرى أن يوسف أقام فى بيت العزيز بعد أن اشتراه اثنى عشر شهرا، ثم راودته امرأته عن نفسه فاستعصم، وكذبت عليه إلى أن حبس ومكث فى السجن عشر سنين. ومعنى هذا أن يوسف كان فى الثامنة عشرة يوم أن راودته امرأة العزيز. ونحن وإن كنا نتفق مع المقريزى بشأن سن يوسف يوم المراودة إلا إننا نختلف معه بشأن سنه يوم أن ألقى به فى الجب. صحيح أن قصر المدة التى انقضت بين شراء العزيز ليوسف ومراودة زوجته له تغنينا عن البحث فى الأسباب التى جعلت هذه المراودة تتأخر فلا تحدث إلا بعد بضع سنين، وليس سنة واحدة كما زعم المقريزى! ولكن الوصول إلى الحقيقة أو حتى الاقتراب منها يهون فى سبيله أى جهد. وكذلك اتساق الآراء وتكاملها فإنه ـ بدوره ـ يتطلب المثابرة على البحث والإصرار على تتبع الحقيقة.

ثالثا ـ أن سن زوجة العزيز غير معروفة، وإن كان من الواضح أنها كانت تكبر يوسف بكثير، فيوم أن أحضره زوجها إلى الدار قال لها: أو نتخذه ولدا، وهو ما يمكن أن نستنتج منه أنها كانت فى مرحلة من العمر تجعلها تناسب أن تكون أما لغلام فى الثانية عشرة، وإلا ما تحدث زوجها بصيغة الجمع فقال: (نتخذه)! فإذا

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص ٢٤٧

افترضنا أنها تزوجت العزيز فى السن التى تكون فيها قادرة على الإنجاب، والتى تبدأ فى الرابعة عشرة، فمعنى ذلك أنها كانت تكبر يوسف بهذا العدد من السنين ـ على أقل تقدير ـ فإذا أضفنا إلى الاثنتى عشرة سنة ـ وهى عمر يوسف ـ أربع سنوات أو خمسا هى التى انقضت عليه فى بيت العزيز حتى اليوم الذى راودته امرأته فيه، فمعنى ذلك أنها كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها أو نحو ذلك.

أما إذا كان يوسف قد بلغ أشده فى الخامسة والعشرين، فى قول، وفى الثالثة والثلاثين فى قول آخر، فإنها حسب القول الأول تكون قد بلغت الخامسة والثلاثين، أو تجاوزتها يوم أن دعته إليها فأبى، فلاحقته تريد أن تكرهه على مضاجعتها. أما حسب القول الثانى فإنها تكون قد بلغت الثالثة والأربعين أو تجاوزتها، وهو افتراض يصعب قبوله لما هو معروف من أن المرأة حين تبلغ هذه السن لا تتصرف بمثل هذا الطيش الذى تصرفت به امرأة العزيز مع يوسف!

والملاحظ أن الغالبية العظمى من المفسرين لم يهتموا ببيان سن امرأة العزيز، سواء يوم أن اشترى يوسف، أو يوم أن راودته عن نفسه، وربما يرجع ذلك إلى أن التوراة لم يرد بها شىء فى هذا الصدد. ومن المفسرين القلائل الذين بحثوا فى هذا الأمر الشهيد سيد قطب[1] الذى قال: «وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ـ يقصد العزيز ـ ألا تقل سنه عن أربعين سنة، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالى الثلاثين*. ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف فى الخامسة والعشرين أو حواليها، وهى السن التى نرجح أن الحادثة وقعت فيها». ولا ندرى لماذا جعل سيد قطب الفرق فى السن بين العزيز وزوجه عشر سنين فقط؟! وإن كنا نرجح أن يكون قد اعتمد على ما هو شائع فى هذا الصدد وهو أن يكون متوسط الفرق فى السن بين الزوجين عشر سنين، ولكن المعروف أيضا أن كثيرين وبخاصة من علية الناس وصفوة القوم، وبخاصة

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٧٩

* قيل: إن اسمها كان راعيل، وقيل: زليخا، وقيل غير ذلك. انظر: الموسوعة الإسلامية الميسرة، المجلد الثانى، ص ١٢٤٩.

من يعملون بالسياسة يتزوجون من إناث يصغرنهم بأكثر من عشر سنين، وربما بعشرين أو بخمسة وعشرين سنة، والأمثلة كثيرة ـ قديما وحديثا ـ ولعل ما كانت عليه العلاقة بين العزيز وزوجه ترجح أن يكون الفرق فى السن بينهما كبيرا وليس عشر سنين فقط. ولعل كبر سن العزيز مع عجزه الجنسى يفسران لماذا كان ضعيفا أمام زوجه اللعوب التى قيل إن اسمها كان زليخا، التى نرجح أن يكون سنها يوم أن راودت يوسف عن نفسه تتراوح بين الثلاثين والأربعين. بينما كانت سن يوسف تتراوح بين السابعة عشرة والعشرين.

نخلص من ذلك إلى أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى حوالى الثانية عشرة من عمره يوم أن اشتراه العزيز وأخذه إلى بيته، وأن زوجته كانت على مشارف الثلاثين، جميلة تفيض أنوثة وجاذبية، وتتميز ـ شأنها فى ذلك شأن نساء القصور المترفات ـ بنعومة بشرتها، وتناسق قوامها، ورشاقته، وبالدلال، وخلو البال، فهى لا هم لها إلا جمالها وأنوثتها ومظهرها، من لحظة أن تفتح عينيها إلى أن تعود إلى فراشها فى وقت متأخر من الليل، بعد أن تكون نالت حظها من المرح واللهو. وبطبيعة الحال، فإن هذه المرأة الحضرية الجميلة، وحياتها الغريبة لفتت انتباه الغلام البدوى يوسف الذى ولد وتربى فى البادية بكل خشونتها وقسوتها، وحيث تتعرض النساء مثل الرجال لحرارة الشمس صيفا وللبرد القارس شتاء؛ فتتأثر أجسامهن وتجف بشرتهن، وتكتسب لونا شديد السمرة مع خشونة ملمس، كما أن أحجامهن ضئيلة، وأجسامهن نحيلة أميل إلى القصر، لا يظهر من مفاتنهن شىء؛ لأنهن يرتدين ثيابا خشنة فضفاضة تبدأ من رءوسهن إلى أرجلهن، وقد يضعن على وجوههن ما يخفى أنوفهن وشفاههن حتى رقابهن فلا يرى الرجل منهن غير عيونهن التى تكاد تكون الوحيدة التى تحظى باهتمامهن؛ حيث يُزَيِّنَّهَا بالكحل حتى يبرزن جمالها؛ لذلك فقد كانت المرة الأولى فى حياة يوسف التى تقع فيها عيناه على امرأة ترتدى ثوبا رقيقا للغاية يشى بما تحته، بل ولا رأى أصباغا مختلفة، منها الأحمر والأزرق والأبيض والوردى، تتوزع على العينين والخدود والشفاه فى تناسق عجيب، ولا شم رائحة عطر، غير البخور

التى عادة ما كانوا يحرقونها داخل خيامهم لتخفف من رائحة الوبر والصوف اللذين تصنع منهما الخيام، والفراش، وتظل لمدة طويلة تحمل رائحة الإبل والغنم، والتى كانت الحرارة الشديدة فى الصيف تضاعف من انبعاثها منها ومن ثيابهم المصنوعة من نفس المادة. أما هذا الذى تضمخ امرأة العزيز جسمها به من عطور فتفوح رائحتها الطيبة حيثما ذهبت فهو مما لا عهد له به.

كذلك، فإنه لم يكن قد خطر على باله فى يوم من الأيام أن هناك أناسا يعيشون فى مثل هذا الترف، فى نومهم وطعامهم وشرابهم وثيابهم وأدواتهم وسلوكهم وعلاقاتهم، ولا تصور أن فى الدنيا قصورا منيفة واسعة الأرجاء، تحيط بها الحدائق الغناء، التى تتخللها قنوات صغيرة أنيقة ينساب فيها الماء رقراقا عذبا إذا سقطت عليه الشمس تألق وكأنه خيوط من فضة تتثنى وتتراقص، بينما البلابل والطيور الصداحة تغرد وتشقشق وهى تنتقل من شجرة إلى شجرة فى طمأنينة ودلال. ولا شك أنه أخذ يتجول فى المكان وقد علت وجهه الدهشة، ولا شك أيضا فى أن الخدم الذين يعملون فى القصر قد لفت نظرهم حسن وجمال وانبهار الغلام البدوى على السواء، فأخذوا يتابعونه بنظراتهم كما لو كانوا يرون مخلوقا من غير البشر، ثم ما لبثوا ـ لما تعاملوا معه ـ أن أدركوا أنه بشر من مستوى راق جدا، حيث فاقت أخلاقه وكافة سجاياه وخصاله جمال خلقته، وأعجبوا وتعجبوا بأدبه الجم، وبالهدوء الذى يناسب من هم أكبر منه سنا بكثير، وبراءته وإحسانه الظن بالناس وميله إلى مساعدتهم والعطف عليهم وتقديم العون لهم، وترفعه عن الصغائر، مع تواضع شديد، ورقة وبشاشة. كما لاحظوا إخلاصه فى العمل، وحرصه على الوقت، وتمسكه بالنظام، وطاعته لمن هو أكبر منه أو أكثر خبرة فأحبوه وأحاطوه بالرعاية والاهتمام. وربما يكون العزيز قد أوصى رئيسهم به، وكذلك امرأته التى كان قد طلب منها أن تكرم مثواه، فأوصت بعدم تكليفه بما لا يطيق، والرفق به فيما يعهد به إليه من عمل، كما داومت على دعوته ليمثل أمامها لتطمئن عليه، ولتعرف ما إذا كان هناك ما يضايقه، بينما هى تبتسم له فى مودة ورقة، وترنو إليه فى إعجاب ودلال، بينما

وقف هو أمامها وقد اتجه بنظره إلى الأرض فى تعبير مهذب عما يشعر به من حياء، وهى تمعن فيه النظر فى دهشة يخالطها الإشفاق المشبع بالإعجاب بالغلام الجميل. وقد تسأله فى تعجب عما يجعله لا ينظر إليها فلا يجد إجابة يرد بها على سؤالها، بل يزداد اضطرابا وخجلا، فلا تملك إلا أن تغفر له امتناعه عن الرد وتصرفه فى رقة وهى تتبعه بنظرتها المتفحصة قائلة لنفسها: إنه لا يزال صغيرا خجولا، ولكنه لن يلبث أن ينضج ويبلغ الحلم وعندئذ سيتغير ويجد فى النظر إليها ـ ولو خلسة ـ متعة كبيرة.

وبالفعل بلغ يوسف الحلم، وانتقل من طور الطفولة إلى طور الشباب والرجولة، فطالت قامته، واكتسب جسمه قوة وصلابة، وبرزت عضلاته، وتغير صوته فأصبح أعمق وأعرض وأعلى، ونما شاربه خفيفا فوق فمه، واتصل بلحيته الأنيقة، وازداد شعر رأسه طولا ينسدل على كتفيه وكأنه خيوط من حرير نقى، والأهم من هذا كله مشاعره وأحاسيسه وإدراكه لكثير من الأمور على وجه يختلف تماما عن إدراكه السابق لها، إدراك الرجل المكتمل الرجولة لدور الأنثى فى حياته، وتأثيرها فى مشاعره وأحاسيسه. ويقول سيد قطب[1]: إن محنة يوسف ـ عليه السلام ـ لم تبدأ يوم أن راودته امرأة العزيز عن نفسه، وإنما بدأت يوم أن بلغ الحلم بكل ما يحمله من تغيرات عنيفة وعميقة، حيث وجد نفسه فى القصر الكبير بين نساء جميلات، على رأسهن زوجة العزيز، وفى مواجهة عادات غريبة عليه، وصور من السلوك لا عهد له بها، فجعله كل ذلك يعانى بشدة فى محاولة لكبح جماح مشاعره التى حفزتها المثيرات التى تحيط به، والتى عبرت عنها المرأة وهى تراوده عن نفسه، ثم النسوة اللاتى شاركنها المراودة أصدق تعبير. فهذه هى المحنة الطويلة التى مر بها يوسف، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة. ولسنه وسن المرأة التى يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة فى تقدير مدى الفتنة، وخطورة المحنة، والصمود لها هذا الأمد الطويل. فليس من شك أن المرأة التى صبرت طويلا

(١) المرجع السابق، ص ١٩٨٠

حتى يبلغ يوسف الحلم بدأت تفكر جديا فى الحصول على مكافأتها على هذا الصبر الممض، فلم يبدأ الأمر بالمراودة، كما قد يغلب على الظن، وإنما سبقتها فترة من الترقب، قامت المرأة خلالها بملاحظة الفتى، واستطلاع موقفه منها، وشعوره نحوها؛ لتعرف ما إذا كان مهتما بها راغبا فيها أم لا؟! خاصة وأنه مجرد خادم أو عبد لديها، مما يجعلها تتحفظ فى إبداء رغبتها فيه، وذلك على خلاف ما إذا كانت مثله، أو كان مثلها، فإن كشفها عن مشاعرها نحوه لا يقلل من مكانتها أو ينال من كرامتها. ولكن الفتى الجميل لم يُعِرْهَا من الاهتمام أكثر مما يعيره الخادم الأمين لسيدته التى سبق لزوجها أن أعرب عن أمله فى أن يتخذاه ولدا. ومع ذلك فقد ظل الأمل يراودها فى أن تتحرك مشاعره نحوها فى يوم ما، فيقبل عليها معبرا عن رغبته فيها، وبذلك توفر على نفسها الحرج، ولكنه لم يفعل، واستمر يعاملها باحترام وتقدير من لا يلتفت إلى الأنوثة الطاغية، ولا يهتم بالمفاتن المثيرة، فهو ينفذ ما تأمره به، ويؤدى عمله بأمانة، ثم يأوى إلى المكان المخصص له يخلو فيه إلى نفسه؛ ليستعيد ما حدث له، ويفكر فى أبيه الذى تركه دون سابق إنذار، والذى يعلم مدى حبه له وتعلقه به، ويحاول أن يتصور ما يمكن أن يكون قد أصابه بعد فراقه له، ثم يتجه إلى الله بالصلاة والدعاء وقلبه مفعم بالأمل فى أن ينجيه مما هو فيه، ويحقق الرؤيا التى سبق أن رآها. وقد يتبادل حديثا قليلا مع زملائه الخدم، شأنه فى ذلك شأن الخدم فى كل زمان ومكان، وهى الأحاديث التى تدور غالبا حول الدار وأصحابها، وزوارهم والجيران وغيرهم، وهو ما لم يكن يحظى باهتمام يوسف. أما سيدته امرأة العزيز فإنها كانت تخلو إلى نفسها فتفكر فيه: ماذا يفعل؟ وفيم يفكر؟ وبمن يهتم؟ وما هو شعوره نحوها؟ وهل يحبها أم لا؟ وما هو السبيل لمعرفة ذلك؟! ولماذا يقتصد فى حديثه معها، ويتعمد دائما أن لايرفع عينيه لتلتقى نظراته بنظراتها؟! وهل هو الحب يريد أن يخفيه عنها؟ أم الخجل منها؟ أم الاحترام الشديد لها؟ والتعظيم لمكانتها؟! وبمضى الوقت كان حبها له يشتد، واهتمامها به يتضاعف، ولكن باءت بالفشل كل محاولاتها لتقريبه إليها، وجعله يشعر بما تكنه

له من حب وعطف، كما باءت بالفشل محاولاتها للتقرب إليه، ورفع الكلفة بينهما تمهيدا للكشف عن مشاعره نحوها، أو تكشف هى عن مشاعرها نحوه.

وهكذا كانت المرأة تقضى كثيرا من الوقت فى التفكير فى الفتى الذى لم تلاحظ عليه أدنى ميل إليها، رغم وجودهما فى بيت واحد معظم الوقت، وقد يكونان وحدهما مما جعلها تنتقل إلى المرحلة التالية، وهى مرحلة الملاطفة والتعبير عن الإعجاب والمودة، ولا بأس من اللجوء إلى أساليب الإثارة، سواء بالعبارة أو بالحركة أو بالنظرة الواضحة الدلالة على ما تكنه له، وما تريده منه. ولكن الفتى لم يتأثر بشىء من ذلك. وبدلا من أن تضيق به المرأة وتنصرف عنه خاصة وأنه خادمها فتقول لنفسها ـ ولو على سبيل المكابرة ـ: من يكون حتى أفعل كل ما فعلت لكى أجتذبه إلىَّ وأثير لديه الرغبة فىَّ ثم يصر على عزوفه ورفضه بينما كثير من رجال الدولة والمجتمع يتمنون أن أتعطف وأتنازل فأخصهم بابتسامة أو إيماءة تجدد لديهم الأمل فى الفوز بى. ولكن لأنها كانت امرأة عنيدة مكابرة لاتقبل الهزيمة ـ خاصة إذا تعلقت بأنوثتها ـ فقد أصرت على أن تنال مأربها منه ولو بالطلب الصريح، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتبارات التى ظلت تمنعها من سلوك هذا السبيل. وليس ما يمنع من أن تكون الحاجة الشديدة إلى الجنس قد ضاعفت من عنادها، وقوت من إصرارها، فقد كان زوجها ـ العزيز ـ على ما يبدو أكبر منها سنا، تشغله عنها أعباء وظيفته الهامة، مما يحتمل معه أن يكون قد قصر فى قيامه بما يفرضه عليه الزواج من واجبات، أو أن يكون حصورا ـ كما أسلفنا ـ فاتخذت زوجته من ذلك سببا للتسلط عليه، وتغليب إرادتها على إرادته، كما نرجح أنه كان ضعيف الشخصية، شأنه فى ذلك شأن الغالبية العظمى من الرجال الذين يختارهم الملوك والرؤساء ليشغلوا المناصب الكبرى فى الدولة.

امرأة العزيز تبدأ فى تنفيذ جريمتها:

إلى أن كان ذات يوم، عندما استدعت المرأة خادمها الشاب إلى داخل البيت،

فى غياب زوجها العزيز، وربما أغلب الخدم، سواء بتدبير منها، أو بمحض المصادفة، بعد أن فاض صبرها، فعقدت العزم على حسم الموقف بأى شكل، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتبارات التى حالت بينها وبين اتخاذ هذه الخطوة فى وقت مبكر، بدلا من أن تظل نهبا لأوهامها ومشاعرها الحسية التى لم تعد تتحملها. ولما دخل يوسف إلى البيت لاحظ أنها فى أكمل زينتها، كما لو كانت ذاهبة إلى حفل كبير، وقد ارتدت ثوبا رقيقا للغاية شف عما تحته، الأمر الذى جعله يدير وجهه فى خجل، وانتابته حيرة شديدة يتساءل فيما بينه وبين نفسه عما استدعته السيدة من أجله. أما هى فقد أخذت ترمقه فى اهتمام وترقب، وكأنها تنتظر أن يقول شيئا بشأن ثيابها أو زينتها، فتلتقط منه الخيط وتمضى بالحديث مبحرة فى المناطق الوعرة، مما يحقق ما تهدف إليه من محاصرته بشتى ضروب الإثارة، إلى أن ينهار أمامها، فتتلاعب به كيف شاءت، ولو على سبيل شفاء غيظها منه؛ لما أظهره نحوها من لامبالاة بل إهمال سبب لها آلاما مبرحة، وأرّق مضجعها، ونغص عليها حياتها.

ولكنه لزم الصمت وهو يتجنب النظر إليها وهى على هذه الحال الواضحة فى دلالتها على ما تريده مما جعلها ترمقه فى دهشة، وهى تتساءل فيما بينها وبين نفسها: من أى مادة خلق هذا الإنسان؟! بل هل هو إنسان حقا؟ أم مخلوق من عالم آخر؟ ليس له قلب يخفق للجمال، أو شعور يتحرك أمام الأنوثة، ويتفاعل مع الفتنة؟! ومع ذلك فقد غالبت ضيقها، ولم تفقد الأمل فى أن تذيب الجليد، مستخدمة كل ما تعرفه من أساليب الغواية، وفنون الإغراء والإثارة، فابتسمت له فى مودة، وكأن إهماله لها لم يضايقها، وتحركت من مكانها ولكن دون أن تقترب منه كثيرا، وبدأت تراوده ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾[1].

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

المراودة:

يقول الزمخشرى[1]: المراودة: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أى: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه. وهو عبارة عن التحمل لمواقعته إياها. وبمعنى آخر أنها خادعته عـــن نفسه لأجل أن يريد منها ما تريد هى منه، وذلك بأن تلطفت فى الطلب[2]. واستخدام كلمة (المراودة) فى هذا المقام إنما أريد به بيان أسلوب المرأة فى الإيقاع بالرجل، فهى ترغب فى أن يضاجعها، ولكنها لا تصرح له بهذا، وإنما تأتى من الحركات والإشارات ما يوحى إليه بما ترغب فيه، حتى إذا استجاب بدا وكأنه هو الذى أراد أن يضاجعها، فإما أن توافقه على ما يريد وإما أن تحاول تأكيد أن الرغبة رغبته وليست رغبتها فتتمنع وتتردد، وفى ذلك قيل: إن النساء يتمنعن وهن الراغبات.

وبدأت فتحدثت إليه بصوت خافت خاضع، بكلام رقيق ناعم، اقترن بنظرة ساحرة صوبتها إليه من عينيها الوسنانتين، ضاعف الكحل المرسوم بعناية من سحرها، وذلك الطلاء الأزرق الذى وضعته على جفنيها فأضفى على نظراتها عمقا وغموضا، بينما الحمرة تلون وجنتيها، لا يعرف منها الناظر ما إذا كانت طبيعية أم صناعية، بينما شفتاها اللتان طلتهما بلون أحمر قان تتحركان فى بطء ودلال، والكلمات الهامسة التى اختلطت بالأنفاس المتهدجة تنساب من بينهما وكأنها لحن عذب يأتى من بعيد. أما عطرها فقد ملأ المكان بعبقه، فكأنه حديقة امتلأت بآلاف الزهور والورود، تنبعث منها مئات الروائح فتمتزج وتختلط لتصنع عطرا واحدا فريدا لا عهد للفتى يوسف به، حتى ولا فى هذا القصر، فقد استخدمته من أجله هو فقط، وضمخت به جسمها كله. وضحكت وهى تنظر إليه مقبلة مدبرة ليراها من مختلف الزوايا، تميل تارة وتتثنى أخرى كما لو كانت فراشة هائمة فى الغرفة الواسعة الغارقة فى العطر والضوء الخافت الذى يتسلل

(١) المرجع السابق، ص ٣١٠

(٢) رشيد رضا، المرجع السابق.

على استحياء من خلال الستائر الرقيقة، بينما هو ينظر إليها فى توجس امتزج بالدهشة والحيرة لا يدرى ماذا يفعل. وتغاضت هى عن تعبيرات وجهه هذه، ورأت أن تضاعف من جرعة الإثارة، فلا يزال فى جعبتها الكثير، والفتى يستحق أى جهد تبذله بعد كل هذا الصبر! وأخذت تدور وتلف لاهثة ضاحكة تدنو منه حتى تكاد تلمسه، ثم تنأى عنه وهى تستفزه بنظرتها المتسائلة اللائمة المتوسلة، ولكنه يتهرب من عينيها، ويتململ فى مكانه كما لو كان يفكر فى الانصراف وقد ازداد توجسه، بل خوفه منها، أو من نفسه. وتلاحظ هى ذلك فتقطب فى قلق، ثم تشرد بنظرتها كما لو كانت تفكر فى شىء ما، وفى رشاقة وأثناء إغرائها له تتجه إلى الأبواب تغلقها بابا وراء الآخر، وفى كل مرة تلقى نحوه بنظرة من فوق كتفها لترى رد فعله، أو لتطمئن إلى أنه لايزال معها فى الغرفة، فيرمقها فى تساؤل وقد اعتراه قلق شديد، يتساءل بينه وبين نفسه إن كانت جادة حقا فيما تفعله؟! ولم يكن يوسف بالغر الذى ليس لديه أدنى فكرة عما يكون بين النساء والرجال، فهو منذ أن جىء به إلى هذا القصر وهو يسمع ويرى العجب مما يقع بين الرجال والنساء، ولما بلغ الحلم أمسى يمعن النظر فيه، ينظر إليه بعين عقيدته لا بعين حواسه فينكره أشد الإنكار. فما بالها وهى تريد منه الآن أن يفعل معها ما يبغضه؟!

الدعوة الصريحة إلى المضاجعة (هيت لك):

وبينما كانت المرأة المتوترة تغلق الأبواب أخذت تفكر فيما يجب عليها عمله بعد أن نفدت كل سهامها فيما عدا السهم الأخير، وتأكدت من عدم جدوى المراودة، فالفتى لم يبد تجاوبا بحيث يقدم على فعل ما تريده هى أن يفعله فتكون هى المطلوبة لا الطالبة. وبعد أن انتهت من غلق الباب الأخير دارت دورة واسعة وهى تلهث من شدة الانفعال، تضحك فى مرح عصبى، وما أن اقتربت منه حتى اندفعت إليه ليفاجأ بها تحيط عنقه بذراعيها، وتلصق صدرها بصدره، وهى تهتف به فى خفوت وأنفاسها تلفح وجهه: (هيت لك) أى: هلم أقبل، وبادر، ومعناها الصريح: هيا ضاجعنى، ولكن القرآن الكريم فضل استخدام كلمة

(هيت) لكى يكون التعبير نزيها راقيا، وإن كان لا يشترط أن تكون هى نفسها قد استخدمت نفس العبارة.

ويفاجأ بها يوسف تعانقه وهى تهمس فى وجهه بهذه الكلمة أو ما فى معناها، فانتابته حيرة لم يدر معها ماذا يفعل، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه أمام هذا الموقف الذى لم يسبق له أن واجهه، فأمسك بساعديها اللتين مدتهما فوق كتفيه يدفع صدرها عنه وهو يشيح بوجهه قائلا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[1]

أى: أعوذ بالله وأتحصن به. ويضيف قائلا وهو يستجمع قواه ليستمر فى إبعادها عنه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[1]

يقصد ـ فى رأى جمهور المفسرين ـ زوجها العزيز الذى اشتراه وجاء به إلى بيته، وأحسن معاملته، وأوصاها بأن تكرم مثواه، بل وتمنى لو اتخذاه ولدا. وإن كان بعض المفسرين رأى أنه إنما قصد بكلمة (ربى) الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أحسن مثواه. وليس ما يمنع من اجتماع المعنيين، حيث إن العزيز لم يفعل ما فعله إلا لأن الله تعالى أراد ذلك رعاية ليوسف وتعويضا له عما لقيه من إخوته ومن الأعراب الذين عثروا عليه فى الجب، ثم عرضوه للبيع كعبد. وبالتالى فإنه لن يجزى الزوج على إحسانه بالشر فيخونه فى أهله ويزنى بزوجته. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] لأنفسهم وللناس كالخيانة والتعدى على أعراضهم وشرفهم.

وإذا كان يوسف قد نزه نفسه عما دعته إليه المرأة من خيانة وهو الفتى العبد، فكأنه عرض بها بما يتضمنه التعريض من احتقار؛ لأنها الزوجة التى يفترض فيها أن تكون حريصة على عرضها، أمينة على شرف زوجها!! ولكن المرأة العنيدة تغاضت عما يرمى إليه بقوله هذا، وأصرت على أن تمضى فيما شرعت فيه مهما كلفها ذلك من إهدار لكرامتها وحط من مكانتها وهى ابنة الحسب والنسب، وزوجة الوزير الكبير. فأخذت تقاوم إبعاده لها وهى فى أوج التوتر وقمة الرغبة تتلاحق أنفاسها المتقطعة وهى ترنو إليه فى توسل لائم، تتملص بيديها من يديه

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

لتعاود الاندفاع إليه وتطوق عنقه بذراعيها وهو يأبى أن يدعها تفعل ذلك، ينظر إليها - بدوره - فى توسل، ولكن من أجل أن تهدأ وتكف عما تفعله! وتلهث المرأة الماكرة وهى تومىء إليه بعينيها بما يفيد أنها تعبت ويئست، وفى نفس الوقت تلين يديها فى قبضتيه كما لو كانت صرفت نظرا عن الصراع طالما أنه لا يرغب فيها، ويصدقها يوسف فيترك يديها وهو يلهث بشدة، ويشرع فى التراجع لكى يبتعد عنها، ولكنه يفاجأ بها تهاجمه من جديد فى لهفة وشوق وإصرار وهى تهمهم وتزمجر وكأنها تقول له: هل صدقت أنى سأتركك؟! وهمت به!

معنى الهم فى قوله تعالى: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾:

حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين اهتمامهم فى واقعة الهم هذه، هَمُّ المرأة أو هَمُّ يوسف. يقول الزمخشرى[1]: هم بالأمر: إذا قصده وعزم عليه. ومنه الهمام، وهو الذى هم بأمر فأمضاه، ولم ينكل عنه. أما ابن كثير فيقول: الهمُّ بالشىء فى كلام العرب: حديث المرء نفسه بمواقعة ما لم يواقع[2]. وقيل: الهمُّ: حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس. أما الشيخ محمد رشيد رضا[3] فيقول تفسيرا لِهَمِّ امرأة العزيز بيوسف: إن أهل اللغة أجمعوا على أن الهمَّ لا يكون إلا بالأعمال، لا بالشخوص والأعيان. ومعناه: مقاربة فعل تعارض فيه المقتضى، أو الدافع مع المانع فلم يقع لرجحان المانع. والمعروف أن رجحان المانع على الدافع قد يكون راجعا إلى إرادة الشخص نفسه، كأن يرى أن يعدل عن المضى فيما شرع فيه تجنبا لعواقبه، وهو ما فعله يوسف - عليه السلام - كذلك قد يكون التراجع عن المعنى فى مقارفة الفعل سببه شخص آخر، كما هو الحال فى هم امرأة العزيز،

(١) المرجع السابق، ص ٣١١

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩

فالمعروف أن المرأة بحكم طبيعتها تقف فى همها عند حد إظهار الاستعداد لمخالطة الرجل، إما صراحة أو ضمنا. فى حين أن الرجل هو الذى يملك وحده أن ينتقل من مرحلة الهم، أو الشروع إلى مرحلة التنفيذ؛ لأنه هو الذى يملك أداته، فإذا وافقته المرأة على إتمام المخالطة انتقلت بدورها إلى مرحلة التنفيذ ولكن بالتبعية. ولرواة الإسرائيليات الكثير من الأقوال والحكايات فى هذا الموضوع بلغوا فيها حد الإسفاف، سواء فى تفسير كلمة (همت به) أو فى تفسير (هم بها)، نسبوا بعضا منها إلى يوسف ـ عليه السلام ـ ونسبوا البعض الآخر إلى امرأة العزيز موهمين الناس أن هذا صدر عنهما فعلا، بينما الحقيقة خلاف ذلك، فلم يثبت عن أى طريق أن يوسف وامرأة العزيز تكلما بأكثر مما ورد بالقرآن الكريم، وهو الكلام الذى يفيد فى بيان أبعاد الواقعة وملابساتها، ويساعد على استخلاص العظة والعبرة منها. ومن هؤلاء السدى الذى قال إن امرأة العزيز قالت ليوسف: يا يوسف ما أحسن شعرك! فقال: هو أول ما ينتثر من جسدى. فقالت: يا يوسف ما أحسن وجهك! قال: هو للتراب يأكله، فلم تزل حتى أطمعته، فهمَّت به، وهمَّ بها، فدخلا البيت، وغلقت الأبواب، وذهب ليحل سراويله، فإذا هو بصورة يعقوب قائما فى البيت قد عض على أصبعه يقول: يا يوسف تواقعها! فإنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لا يطاق، ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات ووقع إلى الأرض، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه، ومثلك إن واقعتها مثل الثور حين يموت، فدخل النمل فى أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. فربط سراويله ـ يعنى يوسف ـ وذهب ليخرج يشتد فأدركته فأخذت بمؤخرة قميصه من خلفه فخرقته حتى أخرجته منه وسقط، وطرحه يوسف واشتد نحو الباب[1] ويبدو من كلام السدى أنه نسى أن هناك امرأة فى حالة شبق غير عادية تنتظر غير بعيد من فتاها الذى أضناها طول انتظاره، فإذا به يكف عن حل سراويله ليحدق فى مكان ما من الغرفة كما لو كان ينصت إلى شخص ما وهو يكلمه، ثم فجأة يثبت

(١) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠٨

سراويله ويولى مدبرا فقامت فطاردته!! ونسى أيضا أن رؤية يوسف لبرهان ربه لايشترط أن يحدث بهذه الطريقة الساذجة، خاصة وأنه نبى أو على الأقل من بيت نبوة، وينتظر أن يكون نبيا! وهناك من الرجال من هم دونه إيمانا واجهوا مثل هذا الموقف، وأفلتوا منه لمجرد تذكرهم لنهى الله عن الزنا، وما توعد به من يقترف هذه الجريمة.

أما ابن إسحق فقال فى هم امرأة العزيز بيوسف: إنها أكبت عليه تطمعه مرة وتخيفه أخرى، وتدعوه إلى لذة من حاجة الرجال فى جمالها وحسنها وملكها وهو شاب مستقبل يجد من شبق الرجال ما يجد الرجل حتى رق لها؛ مما يرى من كلفتها به، ولم يتخوف منها حتى هم بها وهمت به حتى حلوا فى بعض بيوته.

أما ابن عباس فقد نسبوا إليه أقوالا مختلفة فى تفسيره (لهمت به وهم بها)، منها قوله: إنها استلقت ليوسف وجلس بين رجليها. وفى قول آخر: استلقت له وحل ثيابه. وفى قول ثالث إنها استلقت على قفاها وقعد بين رجليها لينزع ثيابه. وعن مجاهد أن يوسف جلس منها مجلس الرجل من امرأته. وقال القاسم بن أبى برة: أما همها به فاستلقت له، وأما همه بها فإنه قعد بين رجليها ونزع ثيابه. وعن سعيد بن جبير قال: أطلق تكة سراويله[1] وهناك فريق آخر ممن تأولوا القرآن بآرائهم قالوا فى تفسير (**همت به وهم بها**) أقوالا مختلفة. فقال بعضهم: إن معنى همت المرأة بيوسف وهم بها يوسف أن يضربها، أو ينالها بمكروه لهمها به مما أرادته من المكروه، لولا أن يوسف رأى برهان ربه وكفه ذلك عما هم به من أذاها، لا أنها ارتدعت من قبل نفسها. ودللوا على صحة ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾[2].

قالوا: فالسوء هو ما كان هم به من أذاها، وهو غير الفحشاء. وقال آخرون: إن معنى (ولقد همت به) فتناهى الخبر عنها، ثم ابتدىء الخبر عن يوسف فقيل

(١) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠٩

(٢) يوسف: ٢٤

(وهم بها) يوسف لولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن يوسف لم يهم بها، وإن الله إنما أخبر أن يوسف لولا رؤيته برهان ربه لَهَمَّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم بها. كما قيل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] ولكن يرد على أصحاب هذين الرأيين بأن العرب لاتقدم جواب لولا قبلها، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهى تريد: لولا زيد لقد قمت، فضلا عن خلافهما مع جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين منهم يؤخذ تأويله.

وليس من شك فى أن الدافع لدى هذا الفريق وغيره إلى هذه الأقوال دافع نبيل هو تنزيه يوسف ـ عليه السلام ـ عن فعل الشروع فى مضاجعة امرأة العزيز مما جعلهم يتأولون معنى الهم. ومنهم ابن كثير الذى قال: إن هم يوسف كان هم خطرات: حديث النفس[2] وقال غيره: هم بضربها، وقال آخرون: تمناها زوجة. وفى الطبرى أن البعض قالوا: إن المرأة همت بيوسف وهم يوسف بها، غير أن همهما كان تمثيلا منهما بين الفعل والترك، لا عزما ولا إرادة. قالوا: ولا حرج فى حديث النفس ولا فى ذكر القلب إذا لم يكن معهما عزم ولا فعل[3] ومن المفسرين الذين فسروا ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ أنها همت بالبطش به لرفضه الاستجابة لها لما دعته إلى مضاجعتها قائلة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ الشيخ محمد رشيد رضا[4] الذى قال: «وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها، ولقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومُرَاوَدَةً عن نفسها لا مُرَاوِدَةً، حتى أن حماة الأنوف من كبراء الرجال ليطأطئون الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ويبذلون لهن ما يعتزون به من الجاه والمال» ويفسر ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بأن يوسف همَّ بدفع هجومها عليه دفاعا عن نفسه، وهو أمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه،

(١) النساء: ٨٣

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨

(٣) المرجع السابق، ص ١١٠

(٤) المرجع السابق، ص ٢٣٠

فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها، وإهانته لها، فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهَمَّ بها، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى تتم به حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى، وتبعته هى مرجحة للمقتضى على المانع حتى صار جزما.

ولقد وجه سيد قطب[1] إلى هذا الرأى نقدا جديرا بالاعتبار حيث قال: إن تفسير رشيد رضا الهم بأنه هم بالضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها فى العبارة، فهى مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه فى تلك الواقعة. وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص.

كذلك ثار خلاف بين الفقهاء بشأن ما إذا كان يوسف ـ عليه السلام ـ نبيا وقت أن همت به امرأة العزيز، فقال ابن عطية[2]: إنه لم يصح أن كان نبيا ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن أوتى حكما وعلما، ويجوز عليه الهمُّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهم الذى هو خاطر، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حل تكته ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوة. وما روى عن أنه قيل له: «**تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء**» فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد.

ويقول القرطبى:[3] إن قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾[4] يدل على أنه كان نبيا، وهو قول جماعة من العلماء. وإذا كان نبيا فلم يبق إلا أن يكون الهم الذى هم به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه.

(١) المرجع السابق، ص ١٩٨١

(٢) القرطبى: المرجع السابق، ص ١٦٧

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨

(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٥

وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] وخبر الله تعالى صدق، ووصفه صحيح، وكلامه حق، فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا ومقدماته، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله، فما تعرض لامرأة العزيز ولا أجاب إلى المراودة، بل أدبر عنها وفر منها، حكمة خص بها، وعملا بمقتضى ما علمه الله.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ـ وهو أبصر به ـ فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من أجلى**». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ مخبرا عن ربه: «**إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة**». فإن كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب، وفى الصحيح: «**إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به**». أما علماء الصوفية فقالوا: إن فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[1] إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة.

وهكذا نلاحظ أن العلماء لم يختلفوا بشأن هَمِّ امرأة العزيز، وهو أنه كان بالفعل، وذلك بأن وضعت نفسها بحيث تكون فى متناول يوسف فيضاجعها إن شاء. ولكنهم اختلفوا بشأن همه بها، فمنهم من قال إنه جلس بين رجليها وبدأ فى حل سراويله، ومنهم من اكتفى بجلوسه بين رجليها دون حل السراويل. أما الفريق الآخر فقد نزه يوسف عن أن يصل إلى هذا الحد، باعتبار أنه نبى معصوم، وفسر همه بأنه كان هم خطرات أو حديث نفس لم يتجاوز إلى الفعل!

ولكن للزمخشرى رأى[2]، وإن اتفق مع رأى الفريق الأول، غير أنه يختلف عنه فى أنه ـ أى الزمخشرى ـ لم يصل إلى الحد الذى بلغه هذا الفريق حين

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٢

(٢) المرجع السابق، ص ٣١١

صور يوسف فى صورة من شرع فى حل سراويله أو حلها فعلا حتى ظهرت أَلْيَتَاهُ - أى خصيتاه - والمرأة نائمة على ظهرها وقد قعد بين رجليها! وإنما قدم صورة مهذبة، وتتفق مع السير العادى والتطور الطبيعى لمثل هذه الواقعة التى طرفاها امرأة العزيز وخادمها. فهو يقول فى تفسير ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾[1] معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[1] وهم بمخالطتها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1] جواب لولا محذوف تقديره: لو لا أن رأى برهان ربه لخالطها، فحذف؛ لأن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾[1] يدل عليه، كقولك: هممت بقتله لولا أنى خفت الله، معناه: لولا أنى خفت الله لقتلته. فإن قلت: كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقوته ميلا يشبه الهم به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم. ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هَمًّا لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين. ويجوز أن يريد بقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾[1]: وشارف أن يهم بها.

ويتفق سيد قطب[2] مع الزمخشرى فى هذا الرأى فهو يقول: «أما الذى خطر لى وأنا أراجع النصوص هنا، وأراجع الظروف التى عاش فيها يوسف، فى داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما. الذى خطر لى أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعد ما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة...

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨١

ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا. هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية، وإلى العصمة النبوية. وما كان يوسف سوى بشر. نعم إنه بشر مختار. ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات. فلما أن رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه ـ بعد لحظة الضعف الطارئة ـ عاد إلى الاعتصام والتأبى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

وفى رأينا أن ما ذهب إليه كل من الزمخشرى وسيد قطب هو الصحيح؛ وذلك لعدة أسباب:

أولها: أن عصمة الأنبياء لا تنفى عنهم طبيعتهم البشرية، وبالتالى فإنهم يتأثرون بما يتأثر به الناس، غير أن إرادتهم القوية وإحاطتهم بما لم يحط به الناس من صفات الله تعالى الذى اصطفاهم من دون خلقه جميعا وأدبهم وعلمهم وآتاهم الحكمة تجعل نظرتهم إلى الأمور تختلف عن نظرة غيرهم، فبالنسبة للزنا ـ مثلا ـ فإنهم يرون عاقبته الشديدة بوضوح وجلاء، بحيث تتضاءل أمامها اللذة السريعة التى يوفرها الزنا.

ثانيها: أنهم بصفتهم أنبياء ورسلا يحملون على عاتقهم مسئولية ثقيلة، يدركون بجلاء فداحة الأضرار التى تصيبهم إذا هم أخلوا بها، وعظم الأجر الذى ينالونه إن هم قاموا بها على وجهها الأكمل، وهو أجر تتضاءل أمامه أى متعة أو لذة يمكن أن يوفرها الزنا أو غيره. وعليه فليس ما يمنع من أن يفاجأوا

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

بموقف أو تصرف فيتأثرون به رغم إرادتهم، ولكنهم سرعان ما يتمالكون أنفسهم ويسيطرون على مشاعرهم ويردون الزمام إلى العقل والمنطق، فيتخلصون مما ألم بهم.

ثالثها : أن تصور البعض للعصمة على أنها حالة من الاستعصاء على كل المؤثرات السيئة ينفرد بها الأنبياء دون البشر جميعا تقيهم الزلل والخطأ بحيث تبدو أشبه بالقميص الواقى من الرصاص الذى يرتديه الحكام، فإنه تصور يسىء إلى الأنبياء ولا يحسن إليهم؛ لأنه يعنى أنه لولا العصمة لكانوا إزاء هذه المواقف وتلك التصرفات مثل بقية الناس، وبالتالى لا يكون لهم أى فضل فى الابتعاد عن المعاصى وعدم مقارفة الآثام. ولعل ذلك التصور المسرف فى الخطأ بدا واضحا فيما ادعاه كثير من العلماء من أن يوسف لما أوشك على مضاجعة امرأة العزيز بأن حل تكة سراويله، وقعد بين رجلى المرأة تتابعت البراهين من مختلف الأشكال لكى تصرفه عما شرع فيه إلى حد أن الله تعالى أهاب بجبريل ـ عليه السلام ـ أن يدرك يوسف قبل أن يرتكب المعصية!

ولقد كان يوسف جميلا، أو كما قال عنه الرسول ﷺ: «**إن الله اختصه بشطر الحسن**» فجمع بذلك بين جمال الخلقة وجمال الأخلاق، ولو شاء الله تعالى لاكتفى بالنسبة له بهذا النوع الأخير من الجمال، ولكنه أضاف إليه جمال الخلقة وهو مالم يفعله مع غيره من الأنبياء. والمقصود بجمال الخلقة ليس الوجه فقط بل كل ما يتكون منه جسم الإنسان بما فى ذلك الإحساس والشعور والوعى السليم والإدراك الصحيح فضلا عن الرجولة، وإلا لكان مَلَكًا كريما كما قالت عنه النسوة، ومثله ليس مكانه الأرض التى نعيش عليها، وإنما مكانه فى السماء مع الملائكة. لقد كان بشرا لا يختلف عن البشر أمثاله إلا فى قوة الإرادة وبعد النظر والتقدير الصائب للأمور، والصلة بالله الذى اصطفاه، فليس ما يمنع من أن يتأثر وقتيا ولبرهة كأنها الومضة، بتصرفات امرأة شغفها حبا وعاشت سنوات تتمناه وتحلم باليوم الذى تروى فيه غليلها منه. ولقد بينا ما صدر عنها من أفعال أثناء مراودتها له عن نفسه، وكيف أنه صمد أمامها كالطود، فما كان منها إلا أن

دعته إليها هاتفة به وكل خلجة فى جسدها تتوق إليه قائلة له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1] ولكنه أبى واستعصم، وعندئذ همت به!

تصوير العلماء لـ (الهم):

يلاحظ من يقرأ ما قاله العلماء عن هَمِّ امرأة العزيز بيوسف أنهم جميعا صوروها وقد استلقت له على قفاها فى استعداد شديد الوضوح والصراحة لمضاجعته. وهو تصور بالغ السذاجة؛ لأنه ـ من ناحية ـ لا يعبر عن معنى الهم، ومن ناحية أخرى يتعارض مع التطور الطبيعى للأحداث فى مثل هذه الحالة. أما من حيث افتقاره إلى معنى الهمِّ فلأن الهمَّ فعل إيجابى، أو كما يطلق عليه فى القانون: شروع، ومعناه البدء فى تنفيذ الأفعال التى يتكون منها الركن المادى للجريمة، والاستلقاء على القفا لا يدخل فى هذه الأفعال؛ حيث إن جريمة الزنا لا تقع إلا بالإيلاج، أو كما وصفها رسول الله ﷺ دخول عضو الذكر فى عضو الأنثى كالمرود فى المكحلة، ومع ذلك فإن تصرف المرأة على هذا الوجه يمكن أن يطلق عليه وصف الأعمال التحضيرية للجريمة؛ لأنها لا تملك التنفيذ، وإنما الرجل هو الذى يملكه.

ومن حيث التطور الطبيعى للأمور ـ فى مثل هذه الحالة التى بدأت فيها المرأة بالمراودة ثم أتبعتها بالدعوة الصريحة إلى الجماع ـ فإن المرحلة التالية تكون بإتيان أفعال من شأنها أن تفقد يوسف ـ وهو شاب مراهق شديد الحساسية إزاءها ـ ما لديه من مقاومة، خاصة وأن المرأة ناضجة ومجربة تعرف كيف تتدرج بفريستها من مرحلة إلى أخرى حتى تقضى على ما قد يكون لديها من تردد أو تمنع، وليس مثل العناق والضم ومحاولة تبادل القبلات ما هو أنجع فى التأثير وأقوى فى الإثارة، حتى من استلقائها على قفاها، لأن الاستلقاء بهذا الشكل قد لا يحدث التأثير المطلوب، بل قد يحدث تأثيرا عكسيا. وهى أمام شاب يرفض صراحة دعوتها إياه إلى الجماع، فلابد إذن من استدراجه بأن تعرض عليه ما هو دون الجماع ولكنه مؤد إليه لا محالة. وهذا هو ما نرجح أن يكون قد حدث

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٣

وأحدث التأثير الشديد والعميق فى الفتى يوسف الذى وإن ظل يقاومها ويحاول أن يبعدها عنه، فإن عناقها له والتصاقها به وإلحاحها عليه بالكلام والنظرات أثار فيه تلك الرغبة الجامحة الطاغية التى يعجز عن الصمود لها وكبح جماحها أقوى الرجال إرادة وأكثرهم حكمة واتزانا. واستغلت المرأة حيرة الشاب أمام إقبالها عليه وعناقها له، لا يدرى كيف يدفعها دون أن يلمس جسدها الناعم المتثنى، وكلما حاول أن يتخلص من ذراعيها اللتين تطوقان عنقه انتهزت الفرصة فالتصقت به بشدة، فى مواضع أخرى، بينما هو يشيح عنها حتى لا تصل بشفتيها إلى شفتيه، ويتراجع وهو يتعثر يهمهم فى توسل، ويحذر فى أسى، ويتأفف فى ضيق، وقد نال منه هجومها الشديد حتى هم بها، أى شرع فى الاستجابة لجسمها بجسمه مدفوعا برغبة مجنونة لا قبل له بها، وشعرت به المرأة فتنفست فى ارتياح، ورنت إليه فى سعادة وكأنها تقول له: أخيرا؟!. ولكنها بوغتت به ـ فى اللحظة التى اطمأنت فيها إلى استجابته ـ يدفعها عنه فى حزم وإصرار، وقد عقد العزم على أن لايفعل ما تريده، ونظرت إليه فى دهشة تريد أن تعرف السبب فى هذا التغير المفاجىء، ولكنه استمر فى دفعه لها لتبقى بعيدة عنه، وكلما تقدمت تراجع وقد بدا عليه الانزعاج الشديد والخوف والندم، وتتلفت حولها باحثة عما سبب له هذا الخوف، ولكنها لم تجد شيئا ولا لاحظت وجود أحد، وكيف تلاحظ ما لا يلاحظه غير الأنبياء؟! فما الذى جعل يوسف يتصرف على هذا النحو؟!

رؤية يوسف برهان ربه:

لقد رأى يوسف برهان ربه، وهو البرهان الذى تعددت بشأنه أقوال المفسرين، كذلك أخطأوا فيما قالوه تفسيرا لقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

حيث تصوروا هذا البرهان تصورا ماديا بعيدا كل البعد عن حالة النبوة، من ذلك قول بعضهم إنه رأى صورة أبيه متمثلة فى سقف الغرفة. وقال البعض الآخر إنه رأى صورة سيده العزيز مرسومة على الجدار، أو صورة ملك يعظه

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٤

بآيات من القرآن. وغير ذلك من الصور التى رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير بالمأثور بما لا يدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع، ولم يرو فى خبر مرفوع إلى النبى ﷺ فى الصحاح ولا فيما دونها.[1] وليس بشرط أن يكون معنى كلمة (رأى) فى الآية المشاهدة بالبصر، التى تصح بالنسبة لآحاد الناس ولكنها لاتصح بالنسبة للأنبياء الذين اختصهم الله تعالى بطرق وأساليب، وميزهم بقدرات وإمكانات تفردوا بها عن غيرهم من الناس، وبالتالى يكون يوسف ـ عليه السلام ـ قد رأى برهان ربه فى داخل نفسه وليس خارجها. ويقول سيد قطب[2]: إن يوسف رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة. وولى يوسف الأدبار متجها إلى الأبواب التى سبق لها أن أغلقتها يفتحها الواحد بعد الآخر، ثم ينطلق لا يلوى على شىء! وأصيبت المرأة بدهشة شديدة وهى تراه يفعل ذلك، فتتساءل فيما بينها وبين نفسها عما أصابه، واعتراها إحساس قوى بالغضب والغيظ، ولم لا وقد كانت قاب قوسين أو أدنى من بلوغ مأربها؟! وهمهمت تقول: أبعد كل هذا الذى فعلته مع هذا العبد يسخر منى ويخدعنى وهو يتظاهر بالاستجابة ثم يولى الأدبار هاربا منى كما لو كنت مصابة بمرض معد أو كنت شيئا مقززا؟!. واستجمعت قواها وعزمت على مطاردته إلى أن تقبض عليه وتنكل به، أو يتعقل ويستأنف ما كانا قد بدآ فيه! ولو أن هذه المرأة كانت قد عرفت شخصية يوسف معرفة جيدة وأدركت ما هو عليه من أخلاق حميدة وخصال كريمة لواجهت إخفاق محاولتها وفشل مسعاها وما ترتب عليهما من إحساس مؤلم بالإحباط بطريقة مختلفة تماما، كأن تنسحب فى هدوء إلى غرفة أخرى لتخلو إلى نفسها فتبكى بحرارة وكأنها إنما تغسل خطيئتها، أو تزيل إحساسها بالعار مما فعلته، أو أن تعتذر للفتى عن إساءتها الظن به والشك فى أخلاقه، وتشكره على أن نبهها إلى الخطأ الذى وقعت فيه، أو أن تتظاهر بأنها إنما أرادت أن تختبره لتعرف مدى إخلاصه لزوجها، واحترامه للبيت

(١) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨٢

الذى آواه، وهو ما تفعله بعض النساء حين يصبن بالفشل فى محاولتهن إقامة علاقة من هذا النوع مع بعض الرجال. ولكن امرأة العزيز ـ على الرغم من كل ما تحملته من صبر وما عانته من انتظار أن تأتى المبادرة من جانت الفتى ـ لم تطق ما أظهره من رفض ـ بل استنكار ـ لسلوكها، ولم تتحمل أن تراه وهو يرمقها فى اشمئزاز من كلامها أو حتى إشفاق عليها وقد انحدرت إلى هذا المستوى، فلا فرق بين الاشمئزاز والإشفاق فى مثل هذه الحالة؛ لأن الإشفاق إذا جاء من العبد نحو سيده كان هو والاشمئزاز أو الاحتقار سواء. فأخذتها العزة بالإثم، وبعد أن كانت نظراتها إليه تفيض رقة وضعفا ونداء وخضوعا، وتعبيرات وجهها تحمل معانى الإعجاب والمودة الشديدة والعطف العميق والدلال، انقلب كل ذلك إلى النقيض، فرمقته فى حدة وقد عقدت ما بين حاجبيها فى تقطيبة شديدة، وقد جحظت عيناها وبلغ اتساع إنسانيهما أقصاه، ترمقه فى غضب وحقد وقسوة، وكأنها تريد أن تحرقه بهذه النظرات، وجعلت تهمهم فى توتر عصبى شديد جعل جسمها الذى كان لينا ناعما منذ لحظات يكتسب صلابة وخشونة وهو يهتز بشدة، من فرط التأثر، وكأنه يوشك أن يتمزق، بينما نفرت العروق والأوردة فى مختلف أجزائه، وبرزت عضلاته حتى بدت المرأة مثل لبؤة جائعة غاضبة تتحفز للوثب على الفريسة المراوغة التى أعيتها جريا ووثبا من هنا إلى هناك دون أن تتمكن من الإمساك بها، إلى أن واجهتها أخيرا وليس بينها وبينها غير خطوات يمكنها أن تقطعها فى وثبة واحدة لتنشب مخالبها فى عنقها وصدرها فتمزقهما تمزيقا. ومع أنفاسها التى أخذت تتلاحق بسرعة حتى كادت أن تتقطع انطلق صوتها المتحشرج يحمل كل عبارات التوعد والغضب والحنق للعبد العنيد تذكره بعبوديته، وكونه لايساوى أكثر من بضعة دراهم ستضحى بها وتسحقه تحت قدميها سحقا، كما ولو كان حشرة، وتسأله من يكون بالنسبة لها هى ابنة الأكابر، وزوج الوزير الكبير، وأين أهله وعشيرته، أم تراه لقيطا لا أب له ولا أهل؟! ويسمع يوسف كل ذلك فلا يرد عليها، بل يحرص على ألا تصل إليه

قبل أن يصل هو إلى الباب الأخير فيفتحه وينطلق هاربا خارج البيت، ولكنها ظلت تطارده صارخة غاضبة تريد أن تفتك به انتقاما منه.

محاولة يوسف الهرب:

فى الآية ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾[1]:

ومعناه أنهما تسابقا إلى الباب! أى أن كلا منهما أراد أن يصل إليه قبل الآخر! ونفهم أن يفعل يوسف ذلك لكى يفتح الباب ويخرج منه إلى خارج البيت هاربا منها، ولكن لماذا أرادت هى أن تسبقه إلى الباب؟! الجواب: أنها فى غمرة غضبها وشدة ثورتها وحنقها أرادت أن تسبقه إلى الباب لتقطع عليه الطريق؛ لكيلا يخرج ويظل داخل البيت، إما لكى تستمر فى محاولتها غوايته لكى يضاجعها، أو للحيلولة دون رؤية الناس له وهو يفر من البيت خائفا فيظن الناس بها الظنون. ولحقت به المرأة، لا يفصلها عنه غير مسافة تعادل طول ذراعها وبخطوة زائدة تمكنت من الإمساك بقميصه، ثم أخذت تجذبه منه فى عنف وغضب لتمنعه من الوصول إلى مدخل البيت حيث يوجد باب الدخول، فمزقت القميص لشدة جذبها له بينما استمر هو فى التقدم إلى الأمام يقاوم جذبها له، حتى خرج إلى مدخل البيت وهى وراءه لا تزال تجذبه؛ ليفاجأ كلاهما برؤية العزيز وقد دخل من الباب، فلما رأته المرأة أسرعت تقوله له: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] وهذا التصرف السريع من جانبها يدل على سرعة بديهتها وشدة ذكائها حيث تحولت ـ بسرعة ـ تعبيرات وجهها ونظرتها لكى تبدو فى صورة الخائفة المرتعبة التى جاءتها النجدة فى وقت لم تكن تتوقعها فيه. ولم تكتف بذلك بل تعمدت أن توحى لزوجها بما يجب أن يتخذه حيال المعتدى من إجراءات كالسجن أو الضرب الموجع، وكأنها قد افترضت أن زوجها قد صدق ما قالته، وأنه لن يراجعها بشأنه، وما عليه إلا أن يعاقب الفتى. وهذا شأن النساء من هذا النوع، اللواتى يسلس أزواجهن لهن القياد ويصدقونهن فى كل ما يقلن، حتى ولو كذبهن واقع الحال.

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٥

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٢٥

شهادة قريب الزوجة:

أما يوسف فقد فوجيء بها تقول ذلك، فبادر إلى الدفاع عن نفسه قائلا إنها هى التى راودته عن نفسه. فكيف واجه الزوج هذا التناقض فى أقوال الطرفين؟ وماذا فعل ليتثبت من صدق أحدهما وكذب الآخر؟ امتلأت كتب التفسير بأقوال كثيرة قامت على اجتهادات لا تستند إلى قرآن ولا سنة، ولا تتفق مع السياق الذى جاء الكلام فيه موصولا حيث قال: ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[1].

مما نرجح معه أن يكون واحدا من أهلها كان قد صحب زوجها إلى البيت فرأى معه ما رأى هو. والشهادة تعنى المشاهدة الفعلية أو العلم بما حدث، غير أن العلم هنا مستبعد لعدة أسباب، منها ما حدث بعد ذلك من قيام الزوج بوضع يوسف فى السجن على الرغم مما ثبت من براءته من التهمة التى وجهتها إليه المرأة، مما يدل على أن العزيز إما أنه خضع لزوجته فيما أرادته كشأن الأزواج الضعاف دائما، أو أنه سجن يوسف ذرا للرماد فى العيون، وحتى لا يصدق الناس أن زوجته هى التى راودته عن نفسه فيحكمون عليها بالخيانة وعليه بالديائة والانقياد لزوجته، مما قد ينعكس على وضعه كوزير كبير يعجز عن إدارة بيته، فكيف يقدر على إدارة شئون وزارته؟!. ومنها أيضا أن مثله لا يلجأ إلى أهل زوجته ليحتكم إليهم فيما يقع بينه وبينها من خلاف؛ لأن ذلك مما لا يجدى مع أمثالها، بل من شأنه أن يثير حفيظتها عليه فتخاصمه أو تؤنبه وهو لا قبل له لا بهذا ولا بذاك، بل يحرص على إرضائها دائما وبكل الوسائل. يضاف إلى ذلك أنه لا يحب ـ وهو الوزير الكبير ـ أن يظهر أمام أهل زوجته فى صورة الضعيف المتهافت الذى يعجز عن كبح جماح زوجته وتأديبها، كما أن أهل الزوجة كثيرا ما ينحازون إليها فيما يقع بينها وبين زوجها من خلافات، فمن باب أولى امتناعهم عن إدانتها فى أمر مشين كهذا، وحتى لو أنه وجد بينهم من عرف عنه التمسك بالعدل والغيرة على الأخلاق فإنهم عادة ما يتجنبون تدخله فى مثل

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٦

هذه الأمور حتى لو كانت صحيحة؛ خوفا من أن يؤدى تدخله إلى ما لاتحمد عقباه، مثل طلاق ابنتهم أو غير ذلك من الإجراءات التى يمكن للزوج أن يتخذها.

كذلك ما قيل من أن هذا الشاهد كان كائنا ليس بإنسى ولا جنى كما قال مجاهد، أو أنه كان صبيا فى المهد، وهى رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك، يؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «**تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم**» وما رواه ابن جرير عن أبى هريرة قال: «**عيسى ابن مريم، وصاحب يوسف، وصاحب جريج تكلموا فى المهد**» فحديث موقوف، أما الحديث السابق المرفوع إلى رسول الله فضعيف، وقد اختاره ابن جرير، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد.[1] ومن باب أولى ما قاله مجاهد عن الكائن الذى ليس بإنسى ولا جان. ويبلغ تكلف المفسرين أقصاه فيما تخيلوه من قيام محاكمة لزوجة العزيز فى بيت أسرتها حيث حضر الشاهد الذى ادعى بعضهم أنه كان طفلا تكلم فى المهد فقال إنه ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]

وذلك دون أن يبينوا كيف حضر هذا الطفل الذى لا يزال فى المهد ولا علاقته بيوسف أو بغيره كالعزيز مثلا أو امرأته، كل ما أرادوا إثباته هو حدوث معجزة لا أكثر، بينما أن الأمر لم يكن يحتاج إلى معجزة وإنما إلى عقل سليم ومنطق قويم وقوة ملاحظة وحضور بديهة وضمير يقظ[3]، فإذا وجد من تتوفر فيه هذه الصفات فلا تكون بيوسف حاجة إلى معجزة. أما تصورهم لقيام محاكمة للزوجة المفتونة فقد جانبوا فيه الصواب بشكل واضح؛ حيث فاتهم إدراك أن أسرة المرأة، بل وطبقة النبلاء والوزراء التى تنتمى إليها لم تكن تقبل أن

(١) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص٢٣٧

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٢٦، ٢٧

(٣) ابن القيم، الطرق الحكمية، ص ٤

تحاكم واحدة منهم فى اتهام وجهه إليها عبد لها أو حتى أن تقابل بين ما نسبته إليه وما نسبه إليها، بل الأكثر من ذلك أن شهادة العبيد على الأحرار لم تكن مما يقبله الناس فضلا عن القضاء، فإذا كانت التهمة تتعلق بمراودة السيدة لعبدها عن نفسه فمن باب أولى، وربما يكون لهذا العرف بعض الوجاهة حيث إنه إذا فتح هذا الباب فلن يغلق أبدا، وستتدفق منه شكاوى العبيد والخدم من سادتهم ذكورا وإناثا إن صدقا وإن كذبا، فتنتشر الفضائح، وتهتز مكانة طبقة الصفوة، ومعها نظام الحكم.

ولقد اقتضى تخيل المفسرين قيام محاكمة لامرأة العزيز فى بيت أسرتها أن يمضوا فى الشوط إلى نهايته، فزعموا أنه قد تم إحضار قميص يوسف ليراه الشاهد، وفى قول آخر: إنه لم ير القميص وإنما سمع وصفا لما أصابه من تمزق فقضى بما قضى! وهو ما نستبعد حدوثه فى الحالتين؛ لأن ذلك يعنى ـ فى الحالة الأولى ـ أن يوسف ـ عليه السلام ـ قد توقع أن تكون هناك محاكمة للزوجة وله أيضا، وأن من سيجرى هذه المحاكمة سيكون من الحكمة وبعد النظر، بل واحترام العدل أيضا بحيث يدرك ما للقميص من أهمية كدليل يرجح اتهام أحد الطرفين للآخر، وبالتالى حرص على الاحتفاظ بالقميص فى مكان أمين لا تصل إليه أيدى الزوجين أو أحد من خدمهما لكى يقدمه لمن سيجرى المحاكمة، وهو تصور مفرط فى السذاجة كما نرى. وفى الحالة الثانية وهى التى سمع فيها الشاهد الذى هو من أهل المرأة بما أصاب قميص يوسف، فإن وصف القميص لا يمكن أن يقوم به إلا واحد من الثلاثة: الزوجان ويوسف، ولما كنا قد استبعدنا أن يكون يوسف قد حضر أمام الشاهد فى بيت أسرة الزوجة ووجه إليها الاتهام بأنها هى التى راودته عن نفسه فإننا نستبعد بالتالى أن يكون هو الذى وصف ما أصاب القميص، بقى الزوجان، أحدهما ـ وهو الزوجة ـ لا يتصور أن تعترف على نفسها بملاحقتها له والإمساك بقميصه وتمزيقه من الخلف، أما الثانى وهو الزوج فقد بينا كيف أن مصلحته وعلاقته بزوجته كانتا تفرضان عليه أن ينكر ما ادعاه يوسف من مراودتها له عن نفسه. فإذا صح ما وجهناه من نقد إلى مزاعم

المفسرين بشأن الشاهد والمحاكمة لم يبق إلا ما ورد بالقرآن متصلا، وهو أن الشاهد كان حاضرا مع الزوج وسمع كُلا من المرأة ويوسف يتهم أحدهما الآخر بالاعتداء عليه فلم يملك ـ وقد ظن أنهما يحتكمان إليه هو والزوج ـ إلا أن يقول ما قال بشأن القميص، وربما يكون قد دفعه إلى ذلك ما لاحظه من تردد الزوج فى إبداء الرأى فيما قالاه ورغبته الصادقة فى إقرار العدل وعدم الإضرار بيوسف الذى نرجح أنه كان قد عرف عنه ـ بحكم تردده على قصر قريبته امرأة العزيز ـ حسن أخلاقه وجمال طباعه وأمانته وصدقه. فلما وجد الزوج الضعيف الشخصية أنه قال ما قال لم يملك أن يتدخل حتى لا يظهر انحيازه لزوجته وتغاضيه عما حدث منها. ولا شك أن الشاهد كان قد رأى قميص يوسف من الأمام حيث كان يواجهه وهو يدفع عن نفسه اتهام المرأة له؛ ولذلك جاء فى الآية ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1].

ولعل هذا ما جعل المفسرين يتخيلون حدوث المحاكمة التى رأى فيها الشاهد القميص لأول مرة، أو استمع إلى وصف لما أصابه، على اعتبار أنه فحص الثوب فى الأولى، وهو يقول ما قاله عن موضع التمزق، فلما لم يجده من الأمام ووجده من الخلف أصدر حكمه على المرأة. وكذلك فى الحالة الثانية، أى: سماعه لوصف القميص. بينما الأوفق أن يكون قد رأى المرأة وهى تسابق الفتى إلى الباب وقد سبقها فتعلقت بقميصه من الخلف فتمزق فى يدها ففهم حقيقة الموقف، ولكنه لم يشأ أن يدينها بلا دليل أو حتى قرينة؛ لما يعلمه من حب زوجها الشديد لها وخضوعه التام لرغباتها، مما قد يجعله يخالفه فيما سيقوله بشأن الملاحقة، ويجادله فيما استنتجه مما شاهداه، فقال ما قال بشأن القميص، فأسقط فى يد الزوج فلم يملك رد ما قاله على أمل منه أن يكون القميص سليما من الخلف فلا يدين الرجل الحكيم زوجته، فلما تبين أن القميص قد تمزق لزم الصمت، وقد اعتراه شعور بالأسى، ولكنه أسى العاجز الذى لا يستطيع أن يتخذ أى إجراء قبل زوجته اللعوب الكاذبة، فمضى الرجل فى حديثه إلى

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٨

الاثنين، فقال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] يعنى أن يدعه من كيدها له باتهامه بمحاولة اغتصابها، وأن لايذكر ما حدث لأحد، ولا يعير تهديدها له بالسجن أو العذاب الأليم أى اهتمام بعد ما تبين بوضوح أنها خاطئة وكاذبة. ثم التفت إليه قائلا: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾[1] حيث اتهمته ظلما، وحاولت أن تراوده عن نفسه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾[1] أى: من جنس المجرمين مرتكبى الخطايا المتعمدين لها. ولهذا غلب فيه جمع المذكر، فلم يقل من الخاطئات. وتنسب كثير من كتب التفسير هذا الكلام إلى الزوج لا إلى الشاهد على الرغم مما نلاحظه من اتصال الكلام ابتداء من ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[2]!

وعلى الرغم من التصرف الذى اتخذه الزوج فيما بعد، والذى يبدو لنا أنه لم يكن له محل إذا كان قد قال هذا الكلام لكل من يوسف وامرأته؛ لأنه كلام يفهم منه أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد، وبالتالى فإن ملف القضية قد أغلق. ولكن الذى حدث جعل الملف مفتوحا؛ لأن المرأة الموتورة العنيدة المصرة على بلوغ مأربها من الفتى أرادت ذلك، وجاراها زوجها فيما أرادت. وما ذلك إلا لأن الحكمة التى أرادها الله من كل ما حدث ليوسف لم تكن قد تحققت بعد.

ونتصور أن يوسف أخذ بنصيحة الشاهد له، ومضى إلى المكان المخصص له فى بيت سيده وهو لا يصدق أنه أفلت من الاتهام الخطير الذى وجهته إليه المرأة، وتخلص من مطاردتها له من أجل أن يضاجعها، وأخذ يشكر الله على إنقاذه له ويدعوه أن يخرجه من هذا البيت على خير، وأن يهدى المرأة العاصية ويقيه شرها، ثم تناول قميصه يصلحه ويرتق ما تمزق منه حتى يعود صالحا للاستعمال. وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور يوسف أن يترك بيت سيده؛ لأنه كان عبدا مشترى لا يتاح له ترك البيت إلا بإحدى وسيلتين، الأولى: أن يعتقه سيده، والثانية أن يبيعه، ولو كان العزيز بعيد النظر ـ كما قيل عنه ـ لما اشترى يوسف ورغب فى أن يتخذه ولدا لبادر إلى اتخاذ خطوة من الاثنتين خاصة بعد أن ثبت أن زوجته هى

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٩

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٢٦

المذنبة المراودة للفتى عن نفسه، وأنها لن تتورع عن أن تعيد الكرة طالما كان الفتى معها، ولكنه لم يفعل لأمر أراده الله تعالى. أما المرأة فإنها انصرفت إلى غرفتها وهى تكاد تتهكم على الشاهد وتسخر مما قاله لها، فلم تستغفر لذنبها كما طلب منها، بل عقدت العزم على أن تنال مأربها من الفتى مهما كانت العواقب.

ولم يكن غريبا أن ينتشر أمر الجريمة النكراء التى ارتكبتها امرأة العزيز فى المدينة؛ فيعلم بها القاصى والدانى، وكيف لا والناس مولعون ـ فى كل زمان ومكان ـ بمعرفة أخبار كبار القوم والمشاهير فى كل علم وفن. وهذا عزيز مصر، الوزير الكبير الذى يلى الملك وولى عهده فى المنزلة، وزوجه الصغيرة السن التى تتدفق أنوثة وجاذبية، يراهما الناس متألقين فى المناسبات المختلفة من وطنية ودينية وقد علت وجهيهما الابتسامات التى تدل على ما هم فيه من سعادة ووفاق، فيتساءلون ـ فى مكر وفضول ـ إن كانا سعيدين حقا أم أنهما يتصنعان السعادة؟! ويتتبعون أخبارهما ليتأكدوا من صحة ذلك. ولم يكن العزيز وزوجته يقيمان وحدهما فى البيت الكبير، وإنما كان معهما ـ فضلا عن يوسف ـ عدد كبير من الخدم على اختلاف تخصصاتهم، منهم من يقوم بأعمال النظافة، ومن يقومون بإعداد الطعام، ومن يقومون بتقديمه، ومن كان عملهم فى خدمة الزوج الوزير، ومن هم فى خدمة الزوجة المدللة، وغير ذلك الكثير من الأعمال التى لا يعرفها إلا سكان القصور. ولا شك أن بعض هؤلاء كان قد لاحظ ما لدى المرأة من ميل إلى الفتى يوسف يجعلها تتعقبه بنظراتها وتهتم بأمره، وتوصى به الآخرين ليقدموا له خير ما لديهم من طعام وشراب، ولا تملك أن تدارى هلعها حين يمرض، وقلقها حين يشكو أو يتبرم، فاستنتج من ذلك وجود علاقة بينها وبين يوسف، ولكنه لما راقب وتحرى وتتبع وتصنت لم يلاحظ ما يدل على وجود أى علاقة بين الاثنين فيما عدا علاقة العبد أو الخادم بسيدته، حرص عليها يوسف وتمسك بها فى لباقة وأدب وكياسة. ولا نظن أن امرأة العزيز قامت بإخلاء القصر من كل من كان به من الخدم فى اليوم الذى عزمت فيه على الإيقاع بيوسف فى حبائلها، وإنما اكتفت بإبعادهم إلى أماكن ملحقة بالقصر كالمطابخ والأماكن

المخصصة لمبيتهم وغير ذلك؛ ظنا منها أن الأمر سيمر فى هدوء مع الفتى المتمرد، ولم يدر بخلدها أن شجارا سيقع ومطاردة محمومة ستجرى، ترتفع خلالها الأصوات لتصل إلى مسامع الخدم، بل فاتها أيضا توقع أن يقوم بعضهم - من الفضوليين - لا بالتصنت وحسب، بل وبالتطلع من خلال ما قد يوجد من فتحات صغيرة فى الأبواب والنوافذ المغلقة؛ ليروا ما يحدث بين السيدة وعبدها الذى أبقت عليه وحده معها، فسمعوا أو شاهدوا ما حدث وتناقلوه وكلهم دهشة من تصرف سيدتهم الغريب، واستنكار لسلوكها الشاذ. وعادة ما يلتقى الخدم، إما فى الأسواق حيث يبتاعون ما يحتاج إليه سادتهم، وإما فى المعابد أو الاحتفالات، وإما الزيارات التى يقومون بها لبعضهم البعض من وراء ظهور سادتهم، فيتبادلون ما لديهم من أخبار تخص هؤلاء السادة. وهكذا وصل خبر امرأة العزيز وفتاها إلى أسماع النساء من زوجات وبنات الطبقة العليا، فاستمعن إليه فى دهشة لا يكدن يصدقنه. ولكن الأخبار توالت تتحدث عن أن المرأة المفتونة لا تزال سادرة فى غيها تلاحق الفتى بحبها وتصر على أن يضاجعها بعد كل ما حدث، ضاربة عرض الحائط بمشاعر زوجها، لا يهمها ما قد يصيب سمعته كنبيل من النبلاء، أو عمله كوزير كبير، فأخذن كلما التقين يتهامسن قائلات: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[1]

وكأنهن يتعجبن من تصرفها هذا وينكرن عليها صدوره عنها. ويقول رشيد رضا[2]: إن هذا الإنكار كان صوريا من أربع نواح:

الأولى: كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الأكبر فى علو مركزها.

الثانية: كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه، وشأن مثلها - إن سخت بعفتها - أن تكون مُرَاوَدَةً عن نفسها لا مُرَاوِدَةً لغيرها.

ثالثا: أن الذى تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

رابعا: أنها بعد أن افتضح أمرها وعرف به زوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٠

باستغفار ربها لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة فى مراودتها، وهو ما أفاده قولهن: (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار، فتلقفنها فى لهفة وتناقلنها فى شماتة وتشفٍّ فى المرأة التى يضمرن لها كل المشاعر غير الطيبة، من كراهية، وحسد وحقد وغيرة. وبطبيعة الحال فإن فضيحتها مع فتاها الذى أذلها برفضه لما دعته إليه كانت فرصة لا تعوض بالنسبة للنساء لكى يسخرن منها ويندد بتصرفها متظاهرات باستنكار فعلتها الشنعاء، التى ـ ربما ـ اعتبرنها كذلك لأن المحبوب المتمرد كان عبدا للمرأة، وليس حرا مثلها أو ندا لها ينتمى إلى نفس طبقتها. وتبلغ دقة القرآن الكريم أقصاها حين أطلق على ما رددته النساء عن امرأة العزيز وصف المكر، يعنى أنهن إنما قصدن استفزازها لكى يدفعنها إلى تبرير ما فعلته، فتريهم الشاب الذى شغفت به حبا حتى يلتمسن لها العذر. وكذلك قولهن: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

لم يكنَّ يقصدن به إنكار المنكر وبغض الرذيلة، ولا حب المعروف والانتصار للفضيلة، وإنما قلنه مكرا وحيلة؛ ليصل إليها فيحملها على دعوتهن ليشاهدن الفتى. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا[2]: إن استخدام القرآن لكلمة (نسوة) إنما قصد به بيان أن عددهن كان قليلا، وينقض ما ادعاه بعض المفسرين من أن اللواتى أجبن دعوة امرأة العزيز كن أربعين امرأة قائلا: إنه ـ أى هذا الادعاء ـ مردود بالتعبير عن النساء العاذلات كلهن بجمع القلة الذى يُستخدم فى التعبير عنه كلمة «نسوة». وسمعت امرأة العزيز بما قالته النسوة، وغالبا من إحداهن التى تظاهرت باستنكار ما قالت إنها سمعته منهن خاصا بامرأة العزيز، فلم تصدقه، ولامَتْهُنَّ على ذلك. وهى الطريقة الماكرة التى كثيرا ما تلجأ إليها النساء إن هن أردن أن يتأكدن من اتصال الخبر بعلم ضحيتهن مباشرة وبصورة معينة. كذلك قد يكنَّ استخدمن امرأة ممن يترددن على قصور الكبار والأغنياء لأداء بعض الخدمات بين الحين والحين كالماشطة والبلانة وغيرهن. وكان لهن مكانة خاصة تتميز على مكانة الخدم، ومهام إضافية، لا تقل أهمية عن مهامهن الأصلية، مثل الترويح عن السيدات بالحكايات المرحة، وشغل أوقات فراغهن ـ وما أكثرها ـ بالنميمة والقيل والقال. وكن ـ بطبيعة الحال ـ ينقلن أخبار النساء بعضهن إلى بعض،

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٠

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١

ولكن النساء لم يكنَّ يصلن فى غضبهن منهن إلى حد منعهن من دخول قصورهن؛ لأن ذلك كان من شأنه أن يحرمهن من وسيلة هامة جدا لمعرفة ما يحدث فى القصور. ولم يكن الأمر يقتصر على تلقى الأخبار، وإنما كان يشمل إرسال ما ترغب النساء فى إبلاغه إلى غريماتهن لإثارة غيرتهن، أو للكيد لهن، أو غير ذلك. وكان اختراع الهاتف وانتشار استعماله سببا فى اختفاء هذه الفئة من النساء.

والتقطت امرأة العزيز الطعم، فأرسلت إلى النسوة تدعوهن للحضور إلى قصرها دون أن تبين لهن سبب الدعوة، وكأنها أرادت أن توهمهن بأنها ستشرح لهن موقفها مما حدث فى محاولة منها لنفى التهمة عن نفسها. وقبل أن يحضرن قامت بإعداد المكان الذى سيجلسن فيه وزودته بوسائد فاخرة مما يستخدم فى الاتكاء عندما يرغب الشخص فى الاسترخاء. ويقول ابن الأثير: إن العامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل فى القعود معتمدا على أحد الشقين، ويقال: اتكأ إذا أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمدا عليه، وكل من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه، وفى السنة أنه ﷺ ما كان يأكل وهو متكيء. ويبدو أن امرأة العزيز تعمدت أن تضع تلك الوسائد الناعمة اللينة فوق الأرائك لكى تغرى النساء المترفات المدللات باستخدامها فيتمددن أو يملن وقد ارتكزن عليها بمرافقهن وأمامهن الفاكهة التى اختارت منها نوعا يحتاج إلى سكين لتقطيعه؛ حتى يتمكن الشخص من أكله جزءًا فجزءًا بالنظر إلى كبر حجم الثمرة، وقدرت المرأة الماكرة أن النسوة سيستخدمن إحدى يديهما فى القبض على الثمرة، ويستخدمن الأخرى فى الإمساك بالسكين لتقطيعها، فإذا كن مسترخيات متكئات على الوسائد، فإنه لابد أن يكون اتكاؤهن على شقهن الأيسر مع الارتكاز على المرفق، وليس على الشق الأيمن حيث يأكلن باليد اليمنى. واختيار هذا الوضع لكى تتخذه النسوة أثناء وجودهن عندها يدل على ما كانت هذه المرأة الشريرة تتمتع به من ذكاء شديد وقدرة فائقة على التدبير والكيد؛ فقد أرادت أن تكون الثمرة فوق الكف شبه رأسية والسكين فوقها، حتى إذا حدث أدنى خلل فى هذا الوضع كأن اضطربت المرأة أو ارتعش جسمها أو اختلج لأى سبب فإن ذلك سيؤدى إلى

انحراف السكين عن الثمرة إلى ما يجاورها من اليد فتقطعه، وكذلك إذا رأت النسوة ما يستدعى النهوض المفاجىء فإنهن سيرتكزن بقوة على السكين وهى فوق الثمرة، فيؤدى الضغط الشديد إلى اختراق السكين لها حتى تشقها وتصل إلى اليد فتقطعها. ولم تفطن النسوة إلى هذا التدبير الشيطانى، وهللن إعجابا بما وفرته لهن من وسائل الراحة، فمنهن من تمددت مسترخية، ومنهن من مالت على شقها، وأمامهن جميعا الفاكهة، بينما طافت هى بهن تعطى كل واحدة منهن سكينا لتقطع به الفاكهة الشهية، وربما التى كان وجودها نادرا أو قليلا، ودعتهن ضاحكة لكى يبادرن إلى تناولها وهى تزينها لهن حتى يركزن انتباههن فيها، فانشغلن بها ضاحكات مسرورات ليفاجأن بها تأمر شخصا ما قائلة: ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾[1].

وذلك لأنها كانت قد أمرته أن ينتظر فى غرفة متفرعة عن الغرفة التى كن يجلسن فيها، فصح أن تقول اخرج عليهن لا ادخل عليهن. فلما نظرن إلى حيث كانت تنظر، وقد توقفت أيديهن عن الحركة والسكاكين فوق الثمار، رأين شابا بارع الجمال، رائع الحسن، ملائكى الطلعة يخرج من الغرفة على استحياء وفى تردد، فأعظمنه وأكبرنه وكأنهن لا يصدقن أنفسهن، وبعد أن كن متكئات شرعن فى النهوض ليجلسن فيمعن النظر فيه، أو ليقفن فيقتربن من هذا المخلوق الفريد فى جماله وحسنه، فلم يشعرن إلا والسكاكين قد قطعت أيديهن فصرخن من الألم وألقين بها وبالثمار، والدماء تنزف من أيديهن. ويبدو أن المرأة الماكرة تعمدت أن تشحذ السكاكين ـ أى تسنها ـ أكثر من المعتاد؛ بحيث تنفذ فى الفاكهة الناعمة لأقل ضغط من أيدى النساء لتنفذ إلى أيديهن الممسكة بالثمار. ومع ذلك ـ وعلى الرغم مما هن فيه من ألم الجرح الذى أحدثته السكاكين ـ لم يملكن أنفسهن من العودة إلى النظر إلى يوسف ـ عليه السلام ـ فى ذهول وهن يقلن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾[2] أى ما هكذا يكون البشر ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[2]

عندئذ رمقتهن المرأة فى تشفّ وقد رسمت على وجهها تعبيرا يدل على

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣١
(٢) سورة يوسف، من الآية: ٣١

الانتصار، فنظرن إليها فى حيرة لا يدرين بماذا يبررن ماسبق أن قلنه عنها، فما كان منها إلا أن حركت رأسها فى زهو قائلة وكأنها تسخر منهن: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾(١)

تقصد أنهن كن يعتقدن أن يوسف مجرد مملوك اشتراه زوجها بماله كما اشترى غيره، أو ظنن أنه خادم صعلوك دفعها تأثرها بظروفه القاسية إلى أن تعطف عليه وتشمله برعايتها، غير أنها ما لبثت أن مالت إليه ثم تحول الميل إلى حب جارف مس شغاف قلبها. وكانت تعتقد أنه إذا شعر بما تكنه له فسيقبل عليها ويبادلها حبا بحب، فلما لم يفعل لم تجد بدا من أن تراوده عن نفسه. وظلت ترمقهن بحدة وكأنها تنتظر منهن أن يقلن شيئا، بينما يوسف يقف فى مكانه لايستطيع أن ينصرف قبل أن تأذن له سيدته، فلم تملك إلا أن تقول لهن: لقد قطعتن أيديكن لما أذهلكن جماله، وخلب ألبابكن جلاله، فما بالكن وأنا التى أراه كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، أشاهده وهو يروح ويجىء، ويقعد ويقوم، وينام ويستيقظ، ويأكل ويشرب، ويتكلم ويصمت، ويتألم ويفرح، فأتألم معه وأفرح لفرحه، وعندما أستريح فى فراشى أغمض عينىَّ على صورته، فإذا استيقظت استيقظت عليها. لقد رأيتموه ملكا كريما، أما أنا فأراه بشرا جميلا، رجلا يفيض رجولة، جسدا لا ملكا، ومضت تعدد ما تحملته من صنوف المعاناة والآلام بسببه، واعترفت قائلة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾(١).

قالت ذلك بعد أن شعرت بتعاطفهن معها، والتماسهن العذر لها بعد ما شاهدن يوسف وسمعنها تذكر ما عانته بسببه. وانفعلت بشدة وكأنما فاض بها ونضب معين صبرها، ترفع صوتها قائلة وكأنها توجه كلامها إليه أيضا: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(١).

إنها لا تكتفى بإنذاره فحسب، بل تهدده بالسجن وبالإذلال، فكشفت بذلك عن صورة نادرة للمرأة عندما يصل فجورها إلى مداه، بحيث لم تأبه بوجود النسوة، و لا اهتمت بأن ينقلن ما سمعوها تقوله إلى الناس، ولا أقامت

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٢

لاحتمال وصوله إلى علم زوجها وزنا، مما يدل على أن هذا الزوج كان ألعوبة في يدها، تحركه كيف تشاء، وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد. ويفهم مما قاله يوسف لما سمع هذا الكلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1] أن النسوة أنفسهن قد نصحنه بالاستجابة لما تطلبه سيدته منه، بل وراودنه هن أيضا عن نفسه وكأنهن اعتبرن ذلك مكافأة لهن على تعاطفهن معها لن ترى بأسا في حصولهن عليها إذا ما نالت هي مأربها من الفتى، أو كأنها وجدت في مراودتهن له عن نفسه ضغطا إضافيا عليه قد يجعله يغير رأيه.

جدل حول أخلاق المصريين:

ولقد ثار كثير من الجدل حول تصرف امرأة العزيز والنسوة اللاتي ما لبثن أن شاركنها فجورها بعد أن رأين يوسف ـ عليه السلام ـ فقد استدل البعض ـ ومنهم أبو حيان في البحر المحيط ـ بتصرف المرأة وموقف زوجها العزيز منها على أنه ناشيء عن طبيعة التربة في مصر وبيئتها؛ فهي لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى، يعني أن الرجال كذلك ينشأون على الرخاوة وضعف النخوة والانقياد للنساء.

يقول المقريزي[2]: «و أما أخلاق المصريين فبعضها شبيه ببعض؛ لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير، قليلة الصبر والجلد؛ ولذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء، والدعة والجبن، والقنوط والشح وقلة الصبر، والرغبة في العلم، وسرعة الخوف، والحسد، والنميمة، والكذب، والسعي إلى السلطان، وذم الناس، وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنيئة التي تكون من دناءة الأنفس. وليس هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة في أكثرهم. ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق، وبرأه من الشرور. ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسُدُ، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٣

(٢) (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ج ١، ص ٤٥

كلاب غيرها من البلدان. وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخرى ما خلا ما كان فى طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والأرنب.

وقال أبو الصلت[1] عن أهل مصر: «وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات، والانهماك فى اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات، لهم خبرة بالكيد، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه، لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا، والمثل بهم مضروبا.

ويقول المقريزى[2]: ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة، وكفاك ما قصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من خبر يوسف ـ عليه السلام ـ ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليه بما بين لزوجها منها السوء فلم يعاقبها على ذلك بسوى قوله: استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين. أما ابن عبد الحكم فإنه برر خضوع الأزواج المصريين لزوجاتهم وقلة غيرتهم عليهن بقصة طريفة جاء فيها: إنه لما غرق فرعون ومعه الجيش الذى كان مكونا من معظم رجال مصر، أثناء قيامه بمطاردة اليهود لم يبق إلا العبيد والأجراء. ولما لم تستطع النساء صبرا عن الرجال لجأن إلى عتق عبيدهن وأجرائهن ليتزوجن بهم، واشترطن عليهم أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن، فأجابوهن إلى ذلك، فكان أمر النساء على الرجال، وأن نساء القبط على ذلك إلى أيام المقريزى[3].

ولقد تسببت هذه الأقوال فى إثارة حفيظة كثير من المصريين، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقدون أنهم أحفاد المصريين القدماء، ويتيهون زهوا بهذه الرابطة، ويستغلون كل فرصة تسنح لهم للتغنى بإنجازات الأجداد والإشادة بحضارتهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث فى حقيقة هذه العلاقة التى هى فى الواقع

(١) المرجع السابق، ص٤٨
(٢) المرجع السابق، ص ٤٩
(٣) المرجع السابق، ص ٤٩

من صنع الغرب الذى أراد أن يدق أسفينا بين المصريين، يتمثل فى إحياء دعوى الفرعونية، وإغراء فئة من المثقفين بالانتماء لها، والتمسك بها كنقيض لمبدأ الأمة الإسلامية، بل والقومية العربية أيضا. وبالفعل وجد ضالته فى عدد من الناس الذين يفضلون الثرثرة على العمل، ويبحثون عن شىء يزهون به بدلا من أن يجدوا ويجتهدوا، فوجدوا فيما وفره الغرب لهم من معلومات عن المصريين القدماء أمدته بها الكشوف الأثرية التى قام بها علماؤه فى طول مصر وعرضها ما أشبع غرورهم، فراحوا يرفعون عقيرتهم فى كل مناسبة مرددين مزاعمهم بشأن أصولهم الفرعونية، وجندوا أنفسهم للهجوم على كل من تصدر عنه كلمة أو يعبر عن رأى يظنون أن فيه مساسا بالمصريين القدماء. وهو ما حدث فى حالتنا هذه؛ فقد شنوا حملة من النقد اللاذع على الفقهاء الذين قالوا عن المجتمع المصرى الذى عاصره يوسف ـ عليه السلام ـ إنه كان مجتمعا منحلا؛ استنادا إلى ما فعلته امرأة العزيز وصويحباتها. وليس من شك فى أن بعض ما قيل عن الرجال المصريين قد جانبه التوفيق بشكل واضح؛ لأن قائليه عمموا الحكم بحيث شمل جميع الرجال فى كل الحقب التاريخية التى مرت بها مصر، والتى تزيد على أربعة آلاف سنة، تعرضت فيها مصر لتغيرات وتحولات عميقة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، انعكست بشدة على الأعراف والتقاليد والعادات والنظم فغيرتها وبدلتها، بحيث جعلت من المستحيل أن يظل الرجال هم الرجال ولا النساء هن النساء.

ومع ذلك، فإن أنصار الفرعونية وقعوا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الذين أدانوا تلك الحضارة. ففى دفاعهم عن المصريين القدماء استعانوا بنصوص أدبية لحكماء قدامى اشتملت على ما قالوا إنها فضائل كان يتحلى بها المصريون القدماء، واستدلوا بها على ما كانوا يتميزون به من حب للأسرة، واحترام للمرأة، واستقامة، وأمانة، وإخلاص، وصدق، موهمين الناس أن ذلك ما كان سائدا طوال التاريخ الفرعونى الذى امتد إلى أكثر من أربعة آلاف سنة! وهذا أمر مستحيل الحدوث؛ للأسباب التى سبق أن بيناها. ولو شاءوا لأوردنا لهم نصوصا

أخرى اشتملت على أمور مخزية، وأحوال متردية، وتدهور شديد فى أوضاع الأسرة، وفى علاقات أعضائها، وتصور ما تفشى من رذائل، مثل الجريمة، والخيانة، والفساد، والكذب، والحقد، والكراهية، مما أشاع جوا من عدم الثقة، وعدم الطمأنينة، والخوف، ولنقرأ ما ورد بإحدى البرديات منسوبا للحكيم اليائس - وسمى كذلك لأنه لم يعثر على اسمه فى البردية التى تركها - بعد أن ألقى نظرة على مجتمع أهل عصره، فلم يجد فيه فاشيا إلا الرشوة، والخيانة، والظلم، وعدم الإخلاص، حتى بين أعضاء أسرته هو. ويقول سليم حسن: «لقد كان من نتائج تدهور البلاد وتمزيق أوصالها فى العهد الإقطاعى أن عمت الفوضى، وساءت الأخلاق، وفسدت العقائد الدينية إلى درجة يقصر فيها الوصف، حتى إن الْجَمَّ الغفير من الناس - وخاصة المتعلمين منهم - قد اعتنقوا مذهب التشكيك، فألقوا بتعاليم آبائهم ظهريا، ورأوا الحياة مسرحا لإشباع الشهوات النفسية... وساءت الأخلاق، ووقع الناس فى الإثم إلى الأذقان»[1]. وفى موضع آخر يقول الحكيم اليائس: «لمن أتكلم اليوم؟ الناس يسرقون، وكل إنسان يغتصب متاع جاره. لمن أتكلم اليوم؟ فالخطيئة التى تصيب الأرض لاحد لها»[2]

ويبدو أن تحرر النساء وجرأتهن إلى الدرجة التى تبرر وصف سلوكهن بأنه يفتقر إلى الحياء، كان مستشريا فى كثير من حقب التاريخ المصرى القديم، يدل على ذلك ما نلاحظه من اشتمال وصايا الحكماء إلى أبنائهم على وصية أو أكثر تحذرهم من النساء وغوايتهن للشباب، وبخاصة الذين لم يتزوجوا بعد. فها هو الحكيم بتاح حتب (٢٦٧٠ ق. م) يوصى ابنه قائلا: «وإذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله، سيدا كنت أم خادما أم صاحبا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى يكن فيه ليس بالحسن، ومن الحكمة إذن ألا تحشر

---

(١) الأدب المصرى القديم - أو - أدب الفراعنة، ج ١ ص ٢٩٦، مطبوعات (كتاب اليوم) العدد الثانى. القاهرة ١٩٩٠م.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٠

نفسك معهن، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم، ولا يجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت»[1].

وفى شكوى خعخبر رع سنب، الذى عاش فى عهد الملك سونسرت الثانى يقول: «إن المصائب تقع اليوم، ومصائب الغد لم تأت بعد، فكل الناس لاهون عن الغد، مع أن كل البلاد فى اضطراب عظيم، وليس بإنسان خاليا من الضر، فإنه يصيب جميع الناس على السواء، والقلوب بالحزن مفعمة، ولا يوجد إنسان عاقل يدرك، ولا إنسان غاضب يتكلم، والناس تستيقظ فى الصباح كل يوم لتتألم»[2].

أما الحكيم آنى فينصح ابنه قائلا: «خذ حذرك من المرأة الأجنبية، تلك التى ليست معروفة فى بلدتها، ولا تغمز لها بعينك، ولا تبغ معها، فهى ماء عميق لا يعرف الرجال التواءاته (تياراته). والمرأة البعيدة عن زوجها تقول لك كل يوم «إنى جميلة» ولذلك فإنها عندما تكون بعيدة عن أعين الرقباء تقف أمامك لتوقعك فى حبائلها. إن ذلك الزنا لجرم عظيم يستحق الإعدام عندما يرتكبه الإنسان. ثم يعلم بذلك الملأ؛ لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب تلك الخطيئة أن يرتكب كل ذنب[3]».

وهكذا يكون أحد الفريقين قد أخطأ فى تصوره للحضارة المصرية القديمة على أنها كانت كلها ديانة فى جانب الرجال، وفجورا وانحلالا فى جانب النساء، بينما أخطأ الفريق الآخر فى تصوره أنها كانت كلها شهامة وغيرة على الشرف فى جانب الرجال، وفضيلة وطهارة فى جانب النساء؛ لأن كلا التصورين بعيد عن الصحة، وإنما الصحيح أن الشعوب تتقلب فى مراحل تاريخها المختلفة بين التماسك والانحلال، والفضيلة والرذيلة، والضعف والقوة، ويبدو هذا أوضح ما يكون فى المجتمعات التى عاشت حضارتها عمرا طويلا أربى على الأربعة آلاف سنة كالمجتمع المصرى القديم.

(١) سليم حسن، المرجع السابق، ص١٩٣
(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٦
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٤

وكما لاحظنا، فإن لهذه الجريمة ظروفا خاصة لا نعتقد أنها يمكن أن تتوفر لأى جريمة مماثلة فى زماننا هذا، فالمجنى عليه تحول إلى متهم بالشروع فى الاعتداء على سيدته، فلما ظهرت براءته من التهمة لم يفده ذلك بشىء؛ لأنه ظل تحت سيطرتها، تحاول أن تثنيه عما أصر عليه من عدم الاستجابة لما تدعوه إليه من مضاجعتها، وبلغ بها الضيق به مداه، فهددته بالسجن والتعذيب فى حضور النسوة اللاتى شاركنها فى مراودته عن نفسه بعد أن بهرهن جماله، فلم يزده ذلك إلا إصرارا على الرفض ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[1].

فهو يفضل أن يسجن، مع ما فى ذلك من معاناة وآلام، على أن يستجيب لما تدعوه النساء إليه من الاستمتاع بهن. ثم يقول: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

يعنى: إن لم تحول عنى ما ينصبنه لى من شراك الغواية لم أسلم من الميل إليهن فأصبح بذلك سفيها استخفته أهواء النفس مما جعله يعمل السوء بجهالة، وهو ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] يعنى استجاب إلى ما طلبه منه، فلم يصب إليهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين.

ولكن هل يئس المجرمون؟ أو ثابوا إلى رشدهم؟! بالطبع لا، فالمرأة العنيدة أبت إلا أن تنتقم من الفتى الذى أصر على رفض ما طلبته منه، وانضمت إليها النسوة الفاجرات اللاتى طمعن فى مشاركتها فى الاستمتاع به. فماذا بشأن الزوج الذى سبق أن سمع الحكم على زوجته بأنها المذنبة وليس الفتى، فيما نسبته إليه من محاولة الاعتداء عليها، وبالرغم من ذلك تركه تحت سيطرتها لكى تستمر فى الضغط عليه دون أى إحساس بالمسئولية، أو بالغيرة على عرضه، أو الرغبة فى حماية شرفه، مما يدل على أنه كان ديوثا كبيرا لا حياء له ولا نخوة. ولا يعقل أن يكون تصرف هذا الوزير خافيا على الناس، أو على الأقل عن الصفوة التى

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٣
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٤

ينتمى إليها، فمن تصرف النسوة يتبين لنا أن اتخاذ الزوجات للعشاق، وخيانتهن لأزواجهن جهارا نهارا كانت عادة مقبولة من الأزواج، أو على الأقل يتسامحون بشأنها.

طبعا لم ييأس المجرمون، فاجتمعوا للنظر فى أمر الفتى المتمرد، ويظهر من عبارة القرآن البليغة أن ذلك الاجتماع قد حدث فعلا؛ حيث جاء به قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾[1].

أى لعدد من النساء والرجال؛ لأنهم لو كن نساء فقط كامرأة العزيز والنسوة لقال (وبدا لهن) ولكنه قال (لهم) فيكون الزوج قد انضم إلى النساء، وربما الشاهد الذى سبق أن حكم بأن المرأة هى المذنبة؛ ليتباحثوا فيما يجب عمله مع الفتى خاصة بعد ما رأوا الآيات، والمقصود بها ما شاهدوه من الدلائل على أن يوسف إنسان غير عادى؛ فهو لم يتأثر بغواية المرأة أولا، ثم النسوة فيما بعد ولا ثناه التهديد والوعيد عن موقفه الحازم والحاسم، بل صمد واستعصم. وربما يكون الزوج الديوث قد اعتبر تصرف يوسف على هذا النحو إهانة له؛ لأنه رفض ما عرضته عليه زوجته من مضاجعتها، وحز فى نفسه أن يسبب لها إحباطا، وربما يكون قد نقم عليه أن أحبته المرأة وأذلت نفسها له، بينما هو يذل نفسه لها دون أن تحبه. وإن كان اجتماع هذين الاحتمالين غير مستبعد، فالرجال من أمثال هذا العزيز الذى لم يكن لديه من العزة غير الاسم تختلط لديهم المشاعر غالبا فتطمس أبصارهم، وتعمى بصائرهم، فيرون الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة، كما هو حال الشعوب الغربية الآن التى تعتبر ممارسة الجنس فى الأماكن العامة فضيلة، وتعتبر ما يعترى المشاهدين لهذه الممارسات من استنكار رذيلة؛ لأنه نوع من التدخل فى حرية هؤلاء المرضى، وكذلك بالنسبة للواط والزنا والسحاق!!.

ليس ذلك وحسب، بل إن بعض الرجال الذين يتعمدون الزواج من نساء جميلات يفضن بالأنوثة، ويتدفقن بالجاذبية يكونون ممن لديهم ميول استعراضية قوية تجرف أمامها ما يكون لدى الرجال عادة من غيرة على زوجاتهم، تجعلهم يرفضون أن تكشف المرأة عن مفاتنها وتبرز محاسنها. ومن

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٥

هؤلاء الرجال من لا يستنكر توجيه البعض لعبارات المديح ـ بل والغزل ـ إلى زوجته، ويعتبر من لا يفعل ذلك إما متخلفا رجعيا أو حسودا حاقدا.

ويرى بعض المفسرين أن الرجل الذى شهد من قبل ربما يكون قد حضر أيضا للتشاور بشأن ما يجب اتخاذه نحو يوسف. ومهما كان الأمر فإن المشاورات انتهت إلى التسليم للمرأة الفاجرة بما طلبته وسبق لها أن هددت به يوسف وهو السجن، وبطبيعة الحال فقد وافقتها النسوة على ذلك؛ لأنه أصابهن من عناده ما أصابها من إحباط وإهانة للكبرياء، وكذلك الزوج الديوث الذى كانت قد روضته وسيطرت عليه وأصبحت توجهه كيف شاءت، ولكن ماذا بشأن الشاهد الذى سبق أن أدانها؟ ولماذا وافق على وضع يوسف فى السجن؟! هنا نرجع إلى ما سبق أن قلناه من أن حكمه الذى أصدره وأدان به المرأة كان حال دخوله مع زوجها، وليس فيما بعد لما شكاها زوجها لأهلها ـ على حد زعم البعض ـ وأنه أصدره فى اللحظة التى شاهد فيها ما كان من ملاحقة المرأة لفتاها بحيث يمكن القول إنه تسرع فى إصداره لحكمة أرادها الله تعالى، لو أنه كانت هناك محاكمة فى بيت أهل المرأة لأتيح له الوقت للتفكير فى حل آخر ليس فيه إدانة لها، أو على الأقل حل وسط لا يبين منه الجانى من المجنى عليه، بل ربما يكون القرار الذى انتهوا إليه من مشاوراتهم بإيداع يوسف فى السجن قد صدر للتمويه على حكم الإدانة الذى سبق لهذا الرجل أن أصدره، وأنه قيل له إنه لا مفر من أن يوافق عليه ليعالج به الخطأ الذى ارتكبه وأساء به إلى قريبته، حيث استند الناس إليه كدليل على فجورها وفسادها إذ أحبت بل شغفت حبا بمملوك لها وهى التى تملك أن تعشق من تشاء من الرجال ممن هم فى مستواها الاجتماعى والاقتصادى. وليس ببعيد أن تقوم امرأة على هذا القدر من الدهاء والفساد وإتقان الكيد بإقناع قريبها وهى تتصنع الحزن الشديد على سمعتها التى أضر بها حكمه، بأن يوافق على سجن يوسف حتى ينسى الناس الحادثة؛ لأنه طالما ظل فى البيت فلن تتوقف الأقاويل، وربما لن تستطيع أن تقاوم حبها له، وكذلك أقنعت زوجها، فلما وافق الرجلان على المبدأ تحولت إلى الخطوة التالية وهى أن

يكون سجن يوسف غير محدد المدة، وإنما يكون الإفراج عنه بعد أن يتم التأكد من أن الناس قد نسوا الفضيحة. وهكذا بقى الظلم قائما وبأشد مما كان، فالوضع فى السجن ليس مثل العيش فى بيت العزيز، ولكن من وجهة نظر يوسف فإن السجن كان أحب إليه من العيش مع المرأة الفاجرة فى بيت واحد تتردد عليه صويحباتها الفاجرات يشاركنها فى الغواية والضغط عليه، وهكذا تأجل ظهور الحقيقة وبراءة المتهم المظلوم إلى يوم لا يعلمه إلا الله. وسيق يوسف إلى السجن بأمر من العزيز تشيعه امرأته المجرمة بنظرات التشفى المختلط بالحسرة؛ لأنها لم تنل منه ما تريد.

وانتشر فى المدينة خبر سجن فتى العزيز الذى شغف امرأته اللعوب حبا، وتملك العجب الناس من الأوضاع المقلوبة التى تجعل البرىء مذنبا والمذنب بريئا، وقال بعضهم ممن ظلوا على تمسكهم بالفضيلة ونبذهم للرذيلة: إن هذا الفساد لابد أن يورد البلاد موارد التهلكة، ويومئذ لن ينجو من الهلاك أحد.

أما يوسف فقد ألقى به فى السجن ليجد نفسه فى مكان واحد مع رجلين اثنين كانا ينتظران الحكم عليهما ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾[1].

أى: فتيان مملوكان، تبين فيما بعد أنهما مملوكان للملك. وروى عن ابن عباس أن أحدهما خازن طعامه، والآخر ساقيه. وحدث أن رأى كلاهما ـ فى منامه ـ رؤيا، فقصاها على يوسف، فقال الأول إنه رأى نفسه يعصر خمرا، أى يعصر العنب الذى تصنع منه الخمر. وقال الآخر إنه رأى نفسه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه، وطلبا منه أن ينبئهما بتفسير لما رأياه، وعللا طلبهما هذا بأنهما يريان أنه ـ أى يوسف ـ من المحسنين الذين يريدون الخير والنفع للناس. وليس من شك فى أنهما توصلا إلى معرفة ذلك بما لاحظاه على يوسف أثناء وجودهما معه فى السجن من سعة علم، ودماثة خلق، وحرص على العلاقة الطيبة مع الآخرين، سواء كانوا مسجونين مثله، أو حراسا، أو غيرهم.

وكان تفسيره لرؤيا أحدهما أنه سيسقى ربه ـ أى الملك ـ خمرا، وتفسيره لرؤيا الآخر أنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه. وأذكر بهذه المناسبة أن خلافا كبيرا نشأ

(١) سورة يوسف، من الآية: ٣٦

بينى وبين بعض المهتمين بتاريخ العقوبة بشأن ما كنت قد أكدته فى بعض ما كتبت من أن المسلمين هم أول من عرف عقوبة السجن بشروطها وأركانها التى نعرفها الآن. أما قبل ذلك فإن الوضع فى السجن لم يكن عقابا بل مجرد إجراء يهدف إلى التحفظ على المتهمين إلى أن تحين محاكمتهم، أو إلى أن يصدر الحكم بشأنهم، واستندت فى ذلك إلى هذه الآيات من سورة يوسف . فيوسف نفسه لم يوضع فى السجن عقابا له على جريمة ارتكبها، وإنما كيدا له من امرأة العزيز، وللأسباب التى سبق أن ذكرتها. كذلك الفتيان اللذان دخلا السجن معه فقد كانا ينتظران الحكم عليهما الذى لم يلبث أن صدر ببراءة أحدهما وإدانة الآخر والحكم بإعدامه صلبا. واغتنم يوسف الفرصة وطلب من الفتى الذى قال له إنه سيقضى ببراءته ويعود إلى عمله ساقيا للملك، أن يتكلم عند الملك بما رأى وسمع وعلم من أمره؛ عسى أن ينصفه ممن ظلموه ويخرجه من السجن. ولكن الفتى الساقى نسى أن يفعل ما طلبه منه يوسف، فظل فى السجن بضع سنين، والبضع من ثلاث سنين إلى تسع، وأكثر ما يطلق على السبع، وعليه أكثر الفقهاء، غير أنهم يذهبون إلى أن السبع هى مدة سجن يوسف من أولها إلى آخرها، فى حين يذهب آخرون إلى القول أن السبع كانت بعد وصيته للساقى، وأنه قضى قبل هذه الوصية خمس سنين فيكون مجموع مكثه فى السجن اثنتى عشرة سنة.

وتتتابع الأحداث، ويرى الملك الرؤيا المعروفة، ويطلب من يفسرها له، وعندئذ يتذكر الساقى يوسف، ويعد الملك بأن يبعث به إلى السجن لكى يأتيه بتفسير للرؤيا التى أقضت مضجعه. ويذهب إلى السجن فيلتقى بيوسف ويقص عليه الرؤيا ويطلب منه تفسيرا لها، فيفعل، ويعود الساقى إلى الملك بما سمعه من يوسف، ولكن الملك يطلب منهم إحضاره لكى يسمع منه بنفسه ويتأكد من علمه وسلامة عقله ومستوى ذكائه. فلما ذهب رسول الملك إلى السجن والتقى بيوسف وأبلغه بما طلبه الملك، قال له: ارجع إلى الملك ـ قبل شخوصى إليه ووقوفى بين يديه ـ فاسأله عما يعلمه بشأن النسوة اللاتى قطعن أيديهن، وكأن

يوسف رجح أن الملك لا يعلم شيئا عن السبب الذى من أجله وضع فى السجن، وأراد أن يسأل عنه لكى يعرف أنه ليس مجرما سجن من أجل ذنب اقترفه، وإنما هو مظلوم.

ولا شك أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان على حق، فالملك ـ شأنه فى ذلك شأن معظم الحكام فى الماضى وفى الحاضر ـ لم يكن يدرى شيئا عن يوسف، كما أنه لم يُبْدِ أى درجة من الاهتمام بأمره عندما عرض عليه الساقى أن يوفده إليه فى السجن، ولا بعد أن عاد بتأويل يوسف للرؤيا، ولا سأل عن السبب الذى من أجله أودع السجن. على الرغم من أن التأويل الذى عاد به الساقى من عند يوسف كان خطيرا؛ لأنه ينذر بكارثة قريبة مما كان يتوقع معه من الملك أن يستعلم عن هذا السجين العجيب الذى نجح فيما فشل فيه منجموه ومفسرو الأحلام التابعون له. فربما كان لإيداعه فى السجن علاقة بتفسيره للأحلام، كأن يكون دجالا أو محتالا أو غير ذلك!!

ونلاحظ أن يوسف لم يفرح لأنه سيغادر السجن ليقابل الملك، وإنما أراد أن يثبت براءته قبل ذلك؛ لتقديره الصائب لأهمية ذلك، حيث تختلف نظرة الملك إليه بحسب ما إذا كان مجرما أم بريئا ألقى به فى السجن ظلما، وفى هذا التصرف ما يدل على أن يوسف كان صبورا متأنيا، عزيز النفس حريصا على كرامته. ولو كان غير ذلك لكان اشترط لتفسير الرؤيا التى رآها الملك أن يفرج عنه أولا، أو لكان بادر إلى تلبية طلب الملك إحضاره إليه لكى يغادر السجن بسرعة، ثم بعد ذلك يسعى إلى إثبات براءته مما نسب إليه. وليس من شك فى أن تصرف يوسف على النحو الذى تصرف به يدل على ذكاء شديد وبعد نظر وحكمة؛ لأنه بهذا التصرف جعل الملك يُولِى الأمر اهتماما كبيرا، وذلك بخلاف ما إذا كان قد قبل الدعوة وذهب إليه، وفى أثناء وجوده فى حضرته عرض عليه قضيته، فإن الملك كان سيعتبر الأمر منتهيا بخروجه من السجن، وقد يطيب خاطره بكلمات أو بمكافأة، أو يظن أنه يريد أن يتقاضى مقابلا لتفسيره للحلم ـ هو براءته من التهمة التى أودع بسببها السجن ـ فما يكون من الملك إلا أن يقول له: أنت برىء دون أن يبحث فى التهمة المنسوبة إليه. ولكن رفضه للدعوة أثار فضول الملك، ولعله تساءل فى دهشة عن كنه هذا الشخص الذى تتاح له الفرصة

للخروج من السجن بعد أن طال مكثه فيه فيرفض إلا بعد أن يتم البحث فى السبب الذى من أجله أودع فى السجن. كذلك يظهر ذكاء يوسف الشديد ولباقته وكياسته فى التساؤل الذى طرحه، حيث لم يتهم النسوة بشىء، ولا ذكر امرأة العزيز، وإنما أشار إلى واقعة غريبة هى قطع النسوة لأيديهن، فهو عمل يثير الدهشة ويدفع إلى البحث والتحرى لمعرفة لماذا فعلن ذلك، وبالتالى فإن البحث سيقود إلى كل ما حدث، وإلى الفاعلين والمساهمين، فتظهر امرأة العزيز وزوجها والشاهد من أهلها فضلا عن النسوة. ولابد أن الذى جعل يوسف ـ عليه السلام ـ يتصرف على هذا النحو هو إدراكه لما فى ذكر امرأة العزيز وما فعلته من حساسية قد تجعل الملك يرفض إجراء التحقيق حتى لايفتضح أمر أعوانه وزوجاتهم، وبالتالى أمر الفساد المستشرى فى الطبقة العليا التى تضم الأسرة الحاكمة وأعوان الملك. وقد يلجأ الملك إلى اتخاذ إجراءات يهدف بها إلى التمويه والتغطية على ما حدث شأن الحكام الفاسدين أو الضالعين فى الفساد غالبا.

كذلك قد يكون يوسف خشى أن ينحاز الملك إلى العزيز وامرأته والنسوة ضده؛ لأنه عبد عبرانى لايجوز له أن يتهم سادته. وهو موقف كثيرا مايتخذه السادة من الخدم، بل ويتخذه أعضاء بعض الشرائح الاجتماعية والفئات الوظيفية والمهنية ضد من يختصم زميلا لهم، ويبدو ذلك أوضح ما يكون بالنسبة لرجال الشرطة الذين ما إن يشاهدون زميلا لهم يضرب مواطنا حتى يبادروا إلى الانضمام إليه فى ضرب المواطن دون أن يسألوا عن السبب.

وحدث ما أراده يوسف، فقد تحرى الملك ـ على ما يبدو ـ عن أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن ولم يكن قد سمع بالحادث لانشغاله بشئون مملكته، أو بغيرها من الأمور التى يدخل فيها هذا النوع من السلوك المشين، ولم لا والناس على دين ملوكهم؟ فإن كانوا فاسدين فسد الناس، وإن كانوا صالحين صلح الناس. وما أصدق الحكمة الصينية التى تقول: إن السمكة تفسد من رأسها، لا من ذيلها، وإن السلم يمسح من أعلاه لا من أسفله.

ولما تأكد الملك من أن هناك نسوة كن قد قطعن أيديهن، وأن ذلك حدث

بسبب رؤيتهن ليوسف الذى كانت امرأة العزيز قد راودته عن نفسه أولا ثم راودنه هن أيضا بعد أن رأينه، دعاهن إلى القصر ومعهن امرأة العزيز، حيث بدأ بسؤالهن قائلا: ما خطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه؟ هل كان عن ميل منه إليكن؟ ومغازلة لكن قبلها؟ هل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها؟ أم ماذا كان سبب إلقائه فى السجن مع المجرمين؟.

أخيرا بدأت محاكمة النسوة، وكان قد مضى زمن طويل، سبع سنين كاملة، وقيل اثنتا عشرة سنة، قضاها يوسف فى السجن، وأمضتها النسوة فى تصريف شئون حياتهن، سواء كانت شخصية أو كانت أسرية، وخضن تجارب كثيرة من هذا النوع ومن غيره، واكتسبن خبرة بالحياة ساهمت فى إنضاجهن بما استخرجنه منها من عظات وما استخلصنه من عبر، فإذا أضفنا إلى كل ذلك تقدمهن فى السن الذى أبعدهن عن الطيش والرعونة والخفة واللامبالاة، واحتمال أن يكون أزواجهن وذوو قرباهن ممن يعملون فى القصر قد أحطنهن علما بما يكنه الملك ليوسف من إعجاب شديد لن يقلل منه أن يكون ما سبق لهن أن اتهمنه به صحيحا؛ لأن مثل هذه الأفعال ليست مما يشين الرجال فى عرف الملك وعرف المحيطين به، وبالتالى فإن يوسف قد يتقلد منصبا رفيعا يجعله قريبا من الملك مسموع الكلمة لديه، بحيث يصبح بمقدوره أن ينتقم لنفسه منهن ومنهم، لتبين لنا أن ما أَجَبْنَ به على سؤال الملك لم يكن غريبا أو غير متوقع، فقد اعترفن بأنهن لم يعلمن عن يوسف أدنى شىء يشينه أو يعيبه ولو كان شيئا صغيرا أو تافها، وهى إجابة ذكية تدل على مكرهن الشديد وكيدهن لصاحبتهن امرأة العزيز. ذلك أنه إذا كان يوسف كذلك فما هى المشكلة إذًا؟!. وكانت المرأة موجودة، فلما سمعت النسوة يشهدن ليوسف أدركت بذكائها الشديد أنهن ينصبن لها شركا، فهى إن نفت ما حدث فستناقض إجابتها إجابتهن، وعندئذ يستمر التحقيق والمواجهة ليثبت فى النهاية كذبها أمام الملك؛ لذلك بادرت إلى الاعتراف على نفسها قائلة: أنا راودته عن نفسه، وهو لم يراودنى كما سبق وادعيت، وهو صادق فيما اتهمنى به من قبل. وبذلك ثبتت براءة يوسف ـ عليه السلام ـ ونصاعة صفحته، فغادر السجن مرفوع الرأس ليعهد إليه الملك بمنصب الوزارة الكبرى.

خلاصة:

تكشف لنا هذه الجريمة عن أمور كثيرة، بعضها سبق الجريمة ومهد لها، والبعض الآخر كان مصاحبا لها، والبعض الثالث وقع بعد ارتكابها. وكلها مجتمعة تفيد أن لا شيء يحدث فى هذه الدنيا بدون إرادة الله ومشيئته، فضلا عن علمه، وأن الجريمة ـ وإن طال الوقت ـ لابد أن ينكشف أمرها ويعرف صاحبها، وأن الله سبحانه لابد أن ينصف المظلوم آخر الأمر.

كذلك فإن الوقوع ضحية لجريمة ما هو نوع من الابتلاء يختبر به الله الإنسان ليرى إن كان سيصبر ويحتسب أم سيضيق صدره ويكفر احتجاجا على ما ابتلاه به. ولقد رأينا ما فعله يوسف ـ عليه السلام ـ ليس مع العزيز وامرأته فقط، بل ومع إخوته الذين سبق أن أساءوا إليه وأرادوا له الهلاك. وكيف عفا وصفح عن الجميع بعد أن نصره الله عليهم.

أما بالنسبة لهذه الجريمة فلعلنا لاحظنا ما يلى:

أولا ـ فيما يتعلق بالعوامل التى دفعت امرأة العزيز إلى ارتكابها فإنها ـ على خلاف الجريمتين السابقتين ـ عوامل اجتماعية خارجية، وأخرى شخصية داخلية. أما العوامل الاجتماعية فتتمثل فى التنشئة الاجتماعية لامرأة العزيز، حيث نشأت وترعرعت فى مجتمع فاسد، أو على الأقل الطبقة المترفة فيه، وهى طبقة الحكام وأعوانهم، لاتقيم وزنا للشرف أو للأمانة، فشبت مدللة مفتونة بنفسها، وزادها سوءاً زواجها برجل يكبرها كثيرا. ومثله لا يجرؤ على أن يرفض طلبا لمن كانت فى مثل سنها، ولا أن يوجه لها أمرا، أو يفرض عليها نهيا حتى لا تغضب عليه، أو تطلب منه أن يطلقها لأسباب لا يحب أن يعرفها الناس، كما أنه قد يخشى أن تتجه إلى غيره بعواطفها، وهو ما حدث على أية حال، فحاولت أن تغرر بخادمها الشاب الجميل فتخون زوجها معه.

ثانيا ـ كذلك بيّن لنا القرآن الحال الذى كانت عليه الطبقة العليا فى المجتمع، فى ذلك الوقت، أو ما يسمى بالصفوة، وهم الذين يضمون أهل الحكم

وأعوانهم من كبار رجال الدين والأثرياء وغيرهم. الذين شغلتهم مطامعهم وملذاتهم عن أسرهم فانحرفت زوجاتهم واتخذن العشاق دون خوف أو حياء، يدل على ذلك أن النسوة من هذه الطبقة لما علمن بما كان من زوجة العزيز مع فتاها يوسف لم ينكرن عليها مراودتها له عن نفسه، وإنما أنكرن عليها أنها راودته وهو عبدها وخادمها، ولذلك أرادت أن يشاهدنه حتى يلتمسن لها العذر فيما فعلته، وقد كان، فقد أذهلهن جماله فرغبن فيه وراودنه هن أيضا عن نفسه دون حياء!

كذلك فإن الملك لما سأل النسوة ومعهن امرأة العزيز عما حدث ليوسف واعترفن أمامه بأنهن راودنه عن نفسه لم يبد أى اهتمام بذلك، على الرغم من كثرة عدد النسوة ووجود امرأة العزيز بينهن، بل على رأسهن، مما يدل على أن ذلك كان أمرا عاديا، وإلا لأثار غضب الملك عليهن وعلى أزواجهن أيضا!

ثالثا ـ على الرغم من أن ما حدث ليوسف مع امرأة العزيز ثم مع النسوة ـ ومن قبل ذلك ما حدث له من إخوته حين ألقوا به فى الجب ـ هو مما قدره له الله تعالى، فإن القرآن الكريم اهتم بأن يبين لنا الأسلوب الأمثل الذى يجب على الإنسان الذى يتعرض للظلم أن يتبعه من أجل أن يثبت براءته مما اتهم به. ولقد رأينا كيف أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يبعث إلى الملك بشكواه مما حدث له من امرأة العزيز والنسوة ثم من العزيز نفسه لتقديره الصائب أن اتهامه لهؤلاء ـ وهو العبد الأجنبى ـ قد يغضب الملك، وبالتالى يغضب منه، أو على الأقل يكتفى بتطييب خاطره دون أن يبحث فى الأمر ليثبت براءته، ففضّل يوسف أن يثير فضوله بأن يطلب من رسوله أن يسأله ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1]. وهكذا ظهرت الحقيقة لما بحث الملك عن السبب الذى جعل النسوة يقطعن أيديهن واعترفن أمام الملك بما حدث متأثرات بموقف يوسف منهن وحرصه على عدم الإساءة إليهن. وكأن القرآن يعلمنا آداب الشكوى والمخاصمة أمام القضاء.

(١) سورة يوسف، من الآية: ٥٠

وأخيرا، فإن القرآن الكريم ـ فى هذه الجريمة وفى التى سبقتها ـ يعلمنا أنه إذا نصرنا الله على من أساءوا إلينا وحاولوا أن يلحقوا بنا أضرارا من أى نوع، وجب علينا أن نصفح عنهم ونسامحهم اكتفاء بما أصابهم به الله من هزيمة وخزى، بل وأن نحسن إليهم لعلهم يراجعون أنفسهم فيخجلون مما فعلوا، أو على الأقل لا يحاولون الإساءة إلينا من جديد. وفى القصة الكثير من العظات والعبر التى لا تخفى على ذوى الأفهام.

* * *